الباب الرابع

سيرة محمد بن سعود
ومراحل انتشار الدعوة ومعارك الدعوة

محمد بن سعود

الاسم : محمد
اسم الأب : سعود
اسم الأسرة : آل مقرن
مكان الولادة : الدرعية
سنة الولادة : ١١٠٠ هـ. – ١٦٨٧ م. (تخميناً) .
سنة رئاسته للدرعية : ١١٣٩ هـ
سنة الوفاة : ١١٧٩ هـ. – ١٧٦٥ م.
مدة حكمه : ٤٠ سنة (نصفها قبل الشيخ ، ونصفها معه) .
أولاده الذكور : فيصل وسعود (استشهدا في حياته) وعبد العزيز وعبد الله .
من زوجاته : ١ – موضى بنت أبي وهطان ، من آل كثير .
٢ – بنت الإمام محمد بن عبد الوهاب .
أولياته : مؤسس دولة نجد . رأس الأسرة السعودية المالكة.
لقب يستحقه : أبو الشهـــدين .

الفصل الأول

سيرة محمد بن سعود في الكتب العربية

في كتابات مؤرخي نجد

يقول ابن غنام :

« كان الأمير محمد بن سعود في جاهليته بحسن السيرة معروفاً ، وبالوفاء وحسن المعاملة موصوفاً ، مشهوراً بذلك ، دون من هنالك . »

ويقول ابن بشر ان محمد بن سعود آوى الشيخ ، « ولم يخش لوم اللائمين ولا كيد الأعداء المحاربين .. فشمر في نصرة الاسلام بالجهاد وبذل الجد والاجتهاد ، فقام في عداوته الأصاغر والأكابر وجروا عليه المدافع والقنابر ، فلم يثن عزمه على ما قاله المبطلون . » .

هذا كل ما ذكره مؤرخا نجد الكبيران في وصفهما لمحمد بن سعود ، وهو يبدو أقل القليل .. متى قورن بما يقوله ابن بشر عند وفـاة كل أمير ، اذ يصف أخلاقه ، وعلمه ، وحديثه ، وسياسته ، وادارته المالية ، وطريقته في الحياة ، ومجالسه ، ثم يعدّد ولاته وقضاته ، بل يتجاوز ذلك إلى نقل طائفة من كلماته ورسائله ، فيعطي

القارىء صورة أمينة أو مقاربة لشخصية كل أمير يترجم له .

لقد اكتفى مؤرخا نجد بتحديد السنة التي توفي فيها الأمير محمد بن سعود ، ثم قصا علينا طائفة من الغزوات التي تمت في عهده ، وكأن اسمه لم يكن أكثر من عنوان لتلك المغازي .

وما ندري.. لعل الأيام تكشف لنا عن مخطوطات مجهولة،في نجد،عني أصحابها بتتبع سيرة محمد بن سعود وغيره من زعماء نجد السابقين ، وإن كنا في شك من ذلك ، لأن أهل نجد ، كما يقول ابن بشر ، لم يكونوا يعنون قديماً بتسجيل تاريخهم.

وفاء محمد بن سعود وثباته وخلقه

وحسبنا الآن ، من أقوال ابن غنام وابن بشر ، أنهما يصفان لنا محمد بن سعود ، بالوفاء والثبات وحسن الخلق ، وهذا وصف صادق ، فثبات هذا الأمير في تأييد الدعوة كان ثباتاً عجيباً ، رفعه الى مستوى الأبطال .

قال الشيخ سليمان بن سحمان :

« من عجيب ما اتفق لأهل هذه الدعوة أن محمد بن سعود ، لما وفقه الله لقبول هذا الدين ، بعد تخلف الأسباب وعدم الناصر ، شمّر في نصرته ولم يبالِ بمن خالفه من قريب أو بعيد ، حتى أن بعض أناس ممن له قرابة به ، عذله عن هذا المقام الذي شمر اليه ، فلم يلتفت الى عذل عاذل ولا لوم لائم ولا رأي مرتاب ، بل جدّ في نصرة هذا الدين ، فملكه الله تعالى في حياته قرى كل من عاداه من أهل القرى ، ثم بعد وفاته صار الأمر في ذريته ، يسوسون الناس بهذا الدين الذي يجاهدون فيه كما جاهدوا في الابتداء » .

في الكتب العربية الحديثة

لم يحاول أحد من المؤلفين العرب المحدثين، فيما نعلم، درس سيرة محمد بن سعود

واستقصاء أخباره ، وكلهم يمرّ به مروراً خاطفاً ، وأكثرهم يكتفي بذكر اسمه .. ومن المؤسف أن كلام هؤلاء المؤلفين عن مؤسس الدولة السعودية ، على قلته ، مشحون بالاخطاء .

واليك بعض الامثلة نأخذها من ثلاثة مؤلفين معروفين ، لا من « التفاهات » التي تغمر الأسواق ..

١ – يقول أمين الريحاني ، في كتابه « تاريخ نجد وملحقاته » :

« .. كان سعود الأول إذا أخذ بلداً يولي عليه أحد أبنائه – أي أبناء الوجهاء من ذلك البلد – كما فعل في العيينة ، التي كان عثمان بن معمر متولياً الإمارة فيها لصاحب الحساء .. فقتل في المسجد بالدرعية ، فولى سعود ابنه مشاري بن معمر مكانه .. وذلك برأيه ، كما يقول ابن بشر لا برأي الناس الذين أرادوا انقراض بيت معمر » .

أخطأ الريحاني في إطلاقه اسم سعود على محمد بن سعود .. فمن غير المعقول أن نجعل الابن أباً !..

وأخطأ في قوله ان ابن معمر قُتِل في الدرعية ، فقد كان مصرعه في بلدته : العيينة !

وأخطأ في قوله ان مشاري هو ابن عثمان بن معمر ، أمير العيينة القتيل ، وانما هو : مشاري بن ابراهيم بن معمر !

وأخطأ في نسبته تولية مشاري الى سعود – يعني محمد بن سعود – فالذي فعل ذلك هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب !

وأخطأ أخيراً ، في ادعائه أن ابن بشر هو صاحب الكلام الذي استشهد به .. فالحقيقة هي أن قائل هذا الكلام – بعد تصحيحه – هو : « ابن غنام » ، لا ابن بشر . قال ابن غنام :

« .. عجل الشيخ الى العيينة المسير .. وقدم عليهم ثالث يوم ، فهدأت لمقدمه نفوس القوم .. والكل بما يوافق مراده مشير ، إلا أن أهل التوحيد والايمان ..

حاولوا ان لا يؤمر من حمولة ابن معمر .. انسان .. فلم يوافقهم الشيخ في مرادهم .. فرأس عليهم مشاري » .

٢ – ويقول فؤاد حمزة في كتابه : « قلب جزيرة العرب » :

« حين وفاة .. سعود.. كان له اربعة أولاد: ثنيان وفرحان ومحمد ومشاري، وقد كان ثنيان قائداً مجرباً وبطلاً مغواراً في الحروب ، بينا كان أخوه محمد فارساً من فرسان السياسة الفطاحل .

... وحينا توفي ثنيان عام ١١٦٠ هـ. ١٧٤٧ م. اعترف الجميع لمحمد أخيه بالإمامة الدينية والزعامة الزمنية المطلقة » .

ان وصف ثنيان بأنه بطل مغوار في الحروب .. مسألة فيها نظر . فالمؤرخ النجدي الكبير ابن بشر يذكر لنا في كتابه أن « ثنيان » هذا كان ضرير البصر ، فكيف يخوض المعارك

وأما القول بأن الأمامة الدينية والزعامة الزمنية لم يعترف بهما لمحمد بن سعود الا بعد موت ثنيان ، كأن ثنيان كان يحول دون ذلك ، فكلام غريب ، لأن محمد بن سعود كان مستقلاً برئاسة الدرعية ، وكان أخوه ثنيان ، كما يقول ابن بشر ، عضداً له ، وهو المشير عليه بالقبول للشيخ والمؤازرة له على الدعوة .

٣ – ويقول أمين سعيد ، في كتابه : « تاريخ الدولة السعودية » إنه سيورد « سيرة كاملة لمحمد بن سعود» ، وقد شغلت هذه السيرة الكاملة خمس صفحات فقط من كتابه ملأها بذكر معارك وقع قسم منها في عهد عبد العزيز .. وتحدث عن محمد بن سعود بهذه الكلمات : « .. أنجب مقرن محمداً ، وهو والد سعود، رأس الأسرة السعودية ، واستولى سعود هذا على الدرعية ، انتزعها من آل معمر ، وجعلها قاعدة له ، وتوفي سنة ١١٤٠ هـ . فخلفه نجله محمد ، وهو الذي لجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب اليه وأولاه الحماية والرعاية .. »

والصحيح : أن سعود لم ينتزع الدرعية من آل معمر ، ليجعلها قاعدة له .. لأن آل معمر كانوا في العيينة لا في الدرعية ، وسعود توفي عام ١١٣٧ هـ . لا عام

١١٤٠ ، وولده « محمد » لم يخلفه عند وفاته ، وإنما تولى إمارة الدرعية بعده : زيد بن مرخان ، فمقرن بن سعود ، فزيد بن مرخان مرة ثانية ، وبعد ذلك جاء محمد بن سعود .

ليست غايتنا من ايراد هذه النصوص وبيان أخطائها ، الحط من قيمة الكتب التي وضعها هؤلاء الأفاضل ، ففيها أشياء كثيرة جليلة القدر ، عظيمة النفع ، ويعد تاريخ الريحاني في نظرنا من أحسن المراجع لتاريخ الملك عبد العزيز ، ولكننا أحببنا أن ننبه إلى اهمال المؤلفين لسيرة محمد بن سعود إهمالاً يكاد يكون كاملاً ..

الفصل الثاني

محمد بن سعود في كتابات الغربيين

لم يعن الغربيون بالكتابة عن تاريخ نجد ، الا بعد استيلاء المصريين على مكة ومسيرهم منها الى الدرعية ، فقد لفت ذلك الأنظار الى أحداث الجزيرة العربية ، فكلفت الدول الأوربية الكبرى سفراءها وقناصلها وعملاءها وجواسيسها .. في كثير من بلدان الشرق الأوسط ، كاستانبول والقاهرة وبغداد ودمشق والبصرة وغيرها ، أن يرسلوا اليها التقارير عن أحوال البلاد النجدية والحجازية وسائر بلاد الجزيرة ، ثم ذهب الرحالون والعلماء والمستشرقون الى البلاد العربية – ولم يكن وصولهم الى بعض مدنها أمراً سهلاً ، بل دفع بعضهم حياته ثمناً لهذه المغامرة – وقد نشروا كتباً ومقالات عن رحلاتهم كان الجمهور يقبل على قراءتها اقبالاً عظيماً ، وكأن أسرار الشرق الساحرة ، وكنوزه العجيبة الباهرة ، كانت تتفتح لهم من خلالها ..

ولم تقف كتابات الغربيين عن نجد ، عند عهد سعود الكبير وابنه عبد الله ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تاريخ مؤسس الدولة السعودية الأولى محمد بن سعود وابنه عبد العزيز ، وإن كانت وثائقهم ومعلوماتهم التي تخصّ هذين الأميرين قليلة ومضطربة .

وأخيراً .. اكتشف المستشرقون ، في مكتبة المتحف البريطاني بلندن مخطوطة اسمها : « لمع الشهاب » في سيرة محمد بن عبدالوهاب » ، فجعلوها عمدتهم في دراسة تاريخ السنوات الأولى من حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والمصدر الأكبر لكتاباتهم عن محمد بن سعود .

وسنبدأ بايراد شيء مما كتبه الغربيون عـن محمد بن سعود ، ثم نتبع ذلك بالنصوص الكاملة للفقرات التي تحدث فيها صاحب اللمع عن محمد بن سعود وأسلوب حكمه .

أول عربي استخدم روايات غربية
في كتابته عن ابن سعود

أول كاتب عربي ، استخدم رواية رحالة أوروبي في كتابته عـن محمد بن سعود ، هو : ندرة مطران، في كتابه : « سورية الغد »، الموضوع باللغة الفرنسية خلال الحرب العامة الأولى .

ينقل مطران عـن الرحالة المشهور « بلغريف » وصفه للأمير محمد بن سعود ، فيقول إنه كان سياسياً حكيماً ، وكان ماهراً في اخفـاء مقاصده « التوسعية » ، فكان يستولي ببطء شديد على البلدان المجاورة له ، حتى لا يستفز جيرانه الأقوياء ويؤلبهم عليه !

ثم يقص علينا قصة طريفة، سمعها من فم «الجريجيري»، أثناء إقامته في باريس[1]..

---

١ – و « بركات » ، هـو اسم رفيق « بلغريف » في رحلته وترجمانه ودليله ، ومصدر أكثر الأحاديث التي وردت في كتابه ، وهو اسم مستعار ، أمـا اسمه الحقيقي فهو: «بطرس الجريجيري»، وهو مسيحي كاثوليكي من لبنان، رافق بلغريف في رحلته واعترف بأن الامبراطور الافرنسي نابليون الثالث هو الذي دفع نفقات رحلة بلغريف ، لأغراض سياسية، ولما عاد الجريجيري من رحلته في نجد الى لبنان انضم الى صف الكهنوت، ومضى بفضل مواهبه العالية صعدا في سلم المناصب الدينية، حتى بلغ القمـة، اذ انتخبوه «بطريركاً» للروم الكاثوليك باسم «بطرس الرابع».

قال الجريجيري : استدعى محمد بن سعود ، وهو في مرض الموت ، ولديه عبد العزيز وعبدالله الى حجرته ، فقال لعبد العزيز انه اختاره خلفاً له ، وكلف الثاني القيام ببعض الأعمال المهمّة ، ونصحهما ، وطلب منهما أن يكونا رحيمين بالضعفاء والمغلوبين .

ثم أوصاهما أن يجتهدا في الغزوات والفتوح ، ولكن .. في حكمة وحذر ، وقال لهما كلمته المشهورة :

« لا تفجروا الصخر ! »

وهذه الوصية انما كانت تعني ضرورة الامتناع عن استفزاز الجيران الأقوياء ، وخصوصاً الدولة العثمانيـــة ، فهذه الدولة ضعيفة ، في الظاهر ، ولكن متى تحداها الأعداء وأثاروها ، تفجرت قواها وسحقت خصومها .

قال مطران : لو تذكر حفيد الأمير هذه الوصية .. لما كانت كارثة الدرعية ، ولما أضاع عبدالله بن سعود ملك آبائه وأجداده ومات قتيلاً » .

وقد نقلت صحيفة الخليج الفارسي كلمة محمد بن سعود بهذه الصيغة :

D'ont undermine the cliff

ومعناها : لا تثر عليك الدول القوية السـاكتة عنك ، بأعمال تفجر غضبها عليك ، كما يفجر اللغم صخراً سـاكناً في مكانه ، فتتهاوى شظاياه وتقتل[1] ..

---

(١) وفي عام ١٩٢٠ نشر الأب لويس شيخو في مجلة « المشرق » في بيروت بحثا حول جزيرة العرب ، تحدث فيه عن دولة نجد ومؤسسها « محمد بن سعود » ، أخذ فيه هو أيضاً عن مصدر غربي ، قال :

« صار الأمر بعد سعود الى ابنه محمد ، وكان هذا رجلاً ذا عزم واقدام ، حريصاً على السيادة ، راغباً في توسيع نطاق امارته ، فسار سيراً حسناً في قومه وأبطل المظالم وألغى المكوس ، وآلف قلوب عشيرته ، ثم أخذ يسعى في مد سيطرته على قبائل نجد فأخضع منها قبائل « العتوب » والعنزة ، ووقف بالمرصاد لغيرهما ، رجاء أن يستولي على كل جزيرة العرب .

.. واخذ يجند الجنود ويمرنهم على مقاساة الجوع والعطش والعري وقطع البوادي القاحلة على الهجين ، يركبه الجنديان مترادفين ، وكان يرسلهم لمحاربة القبائل المخالفة فينقضون عليها انقضاض

أول أمير

يقول « بركارت » إن محمد بن سعود هو أول من أطلق عليه لقب أمير من آل مقرن . وكانوا يسمون حكام الدرعية قبل ذلك : شيخ الدرعية ، أو صاحبها ، أو رئيسها .

وهذا أيضاً رأي جون باركر ، الذي كان قنصلاً في حلب ، وجاء في تقرير له مؤرخ في يونيو عام ١٨٠٣ م. ما يأتي : (كان في مقدمة المنضمين الى المذهب الوهابي رئيس أسر غنية في منطقة نجد تتحدر من ربيعة ، واسمه محمد بن سعود ، ولما كثر أتباعه ، سموه باسم « أمير ») .

وتقول لادي بلنت : « في منتصف القرن الثامن ، دعا محمد بن عبد الوهاب – لوثر المحمديين – الى اصلاحه الديني في نجد ، فانضم اليه ابن سعود، شيخ درعية العنزي ، وبمؤازرة ابن عبد الوهاب أصبح سلطاناً في جزيرة العرب ، بعد ان كان شيخ قبيلة واحدة ورئيس بلدة واحدة . »

القشاعم ، فان ايس اهلها من النجاة عرضوا عليهم الدين الوهابي ، فان ابوا اعملوا السيف.. وان رضوا عشروا اموالهم ، واخذوا ايضاً من رجالهم العشر كجند ينظمونهم في جيوشهم ، فقويت بذلك شوكة ابن سعود حتى اصبح اكبر امراء نجد . وكان ابنه عبد العزيز رئيساً على جيوشه ، فأيد بفتوحاته الدعوة الوهابية » .

ويظهر ان الأب شيخو اخذ بعض اقواله عن سليمان الدخيل، الذي نشر عام ١٩١٣ م مقالا في مجلة « لغة العرب » البغدادية ، عن تاريخ نجد قال فيه !

« تولى سعود الامارة بعد والده الأمير محمد بن مقرن ، وكان مسكنه في الدرعية ، واليه ينسب بيت سعود وكانت وفاته في سنة ١٣٣٧ هـ » .

والذي تربع على عرش الامارة بعده ، هو ابنه الامام محمد بن سعود ، وسار هذا الامير سيرة حسنة في الناس ، اذ رفع المظالم وابطل المكوس والضرائب ، وعاضده على ذلك اخوه ثنيان الاكبر ، فقويت شوكته وامتدت سطوته وناهض الاستبداد اشد المناهضة ، وحاول الاستيلاء على جميع جزيرة العرب في حياة اخيه ثنيان ، الا ان هذا الاخير مات في سنة ١١٦٠ هـ . « ١٧٥٦ م ». فلم ينل محمد ما كان ينويه ، ثم مات هو ايضاً في سنة ١١٧٠ هـ . – ١٧٥٦م.

وفي كلا المقالين – مقال الأب شيخو ومقال الدخيل اخطاء ، ولكن اخطاء الدخيل اكثر.. ومن ابرزها انه جعل سنة وفاة محمد بن سعود ١١٧٠ هـ مع انه توفي بعد ذلك بثماني سنوات !

اقتصاد الأمير

يقول كورانسيز ، مؤلف كتاب « تاريخ الوهابية » إن تجاراً نجديين ، عارفين بأمور الدرعية ، أخبروه ان الأمير محمد بن سعود كان يطبق سياسة اقتصادية قريبة من التقتير ، ومن مظاهرها أنه استبدل الخيل بالبعير ، وأمر أن يركب كل ذلول رجلان ، فكان كل راكب يردف وراءه راكباً آخر ، ومن هناك اسم : « المردوفة » ، وقد خفض رزق المحارب وعلف الحيوانات ، بحيث يحمل الجمل على ظهره مؤونة تكفيه عشرين يوماً ، وبفضل هذه التدابير استطاع أن يزيد في عدد مقاتلته من غير زيادة كبيرة في نفقات الدولة .

ويضيف كورانسيز الى ذلك ان هذه السياسة الاقتصادية الصارمة ، كانت تضطر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، أحياناً ، الى استقراض الأموال من الناس ، باسمه الخاص ، للانفاق على بعض الأعمال وتجهيز بعض الغزوات .

وهذا الوصف يبدو مخالفاً لما قاله صاحب « اللمع » في كتابه ، لأنه يصف محمد ابن سعود بالكرم .. الى حد التبذير !

حذر الأمير

يقول هوتسما ان محمد بن سعود – ثم ابنه فحفيده – كانوا ، كلما استولوا على بلد ، أنشأوا على مقربة منه حصناً ، وحفروا حوله خندقاً ، ووضعوا فيه رجالاً يسمون « الأمناء » ، فاذا قامت في البلد ثورة ، كان الحصن ملجأ للهاربين ، ونقطة انطلاق للعودة والغزو والتأديب .

ومما يدخل في باب الحذر أيضاً ، ان الأمير محمد كان يشير باستقصاء أحوال العدو في كل معركة ، والامتناع عن مهاجمته أو متابعته منهزماً ، إلا بعد التثبت من النصر والأمن من الكمين .

وقد خالف أهل الدرعية مرة نصيحة الأمير وتتبعوا مقاتلة دهام بن دواس ، في هزيمتهم الماكرة ، فخرج عليهم كمين للعدو ، في بعض الطريق ، وقتل من أهل

الدرعية رجال وفتيان شجعان وفي طليعتهم : فيصل وسعود ، ولدا الأمير محمد .

فكر في انشاء حكومة في جزيرة العرب
ولكنه كان يهاب تركيا

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا :

« لجأ الشيخ الى محمد بن سعود ، ودخل أهل الدرعية في المذهب ، وبلغ أمير الدرعية في وقت قصير مبلغاً كبيراً من القوة .

لم يأخذ أمير الدرعية لنفسه شيئاً من أموال الزكاة ، ولكنه فرض لنفقاته خمس الغنائم .

وكانت القبائل البدوية تنضم اليه بسهولة .

ولما تكاثر أنصار المذهب الجديد والتفوا حوله ، فكر في إنشاء حكومة في جزيرة العرب ، ولكن هيبة الدولة العلية العثمانية جعلته يتحاشى التعرض للمدن الكبرى ..

وكان يكره نادر شاه الشيعي ويتضايق ويجزع من ذيوع صيته . »

لولا محمد بن سعود لما كان للوهابية كيانها ..

ويقول فيلبي : ان محمد بن سعود « لحق بأجداده سنة ١٧٦٥ م. فدفن في مقبرة الدرعية ، بعد عمر مديد مليء بالأمجاد . » وإنه « شهد مرتين في حياته استسلام أشد أعدائه : دهام بن دواس ، أمير الرياض . ومات قرير العين، مطمئناً الى أن أعظم مهمة في حياته قد سويت الى الأبد .. وكانت هزيمة نجران لجيشه أعظم ضربة تلقاها في حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، وربما لقي وجه ربه وهو ما يزال قلقاً على مستقبل دولته ، وان كان الانتصار التالي على بني خالد قد شدّد من ايمانه وثقته بقدرة دولته العسكرية .

وقد كان له وحده الفضل كل الفضل في تثبيت أقدام النظام الجديد وانتشار

مذهبه الذي أسبغ عليه وعلى خلفائه من بعده الجاه العريض والشهرة الواسعة .

فلولاه لما كان للوهابية كيانها ، ذلك انه هو الذي أعد العدة لمرحلة الاصلاح الاسلامي الجديد . »[1]

صورة للخلافة الراشدة

ويقول جان ريفوار : « من حسن الحظ ان اتفق لوعظ ابن عبد الوهاب ارتضاء محمد بن سعود ، الذي هو رئيس وارث لمجتمع من أهم مجتمعات نجد ، مسيطر في ذلك الحين على الدرعية .. ويتكشف هذا الأمير عن رجل ذي موهبة ادارية حربية كبيرة ، وما أبداه من تأييد مطلق لمؤسس هذا المذهب ضمن لهذا المؤسس ما كان يعوز سلطانه الأدبي من سلطان مادي .

فلما مات ابن عبد الوهاب سنة ١٧٨٧ م. كانت الدولة الوهابية ، التي هي صورة مصغرة لخلافة المدينة ، سائرة في طريق التقدم السريع ، صاحبة لقوة عسكرية عظيمة ، وما كان من ادارة متينة قادرة ضمن للأهلين أمناً لا عهد لهم بمثله قبل ذلك التاريخ ، ويكاد السلب يكون مفقوداً والعدل يقام خالياً من الغرض ، وتشمل كل واحة على مدرسة ، ويرسل المعلمون الى جميع القبائل البدوية . »

سيف ابن سعود

وجاء في كتيب « شخصيات الجزيرة العربية » : « محمد بن سعود ، شيخ الدرعية هو مؤسس ومنشىء إمارة نجد .. وكان أول نصير عظيم لمحمد بن عبد الوهاب .. وسيف محمد بن عبد الوهاب هو الذي نشر الوهابية في واحات نجد .»

التقارير الرسمية الاولى عن الحركة الوهابية

وتقول دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الانكليزية) :

---

١ – كتاب تاريخ نجد ، لفيلبي .

« حوالى عام ۱۷٤٠ م. أخرج محمد بن عبد الوهاب من « العيينة » ، حيث كان ناشطاً في نشر مذهبه ، فالتجأ الى صديقه محمد بن سعود ، وتعاون الاثنان على نشر المذهب الجديد بالقول والسيف . وقد شرعا منذ عام ١١٥٩ هـ. (يناير ١٧٤٦ م.) في شن الغارات على البلاد المجاورة ومناطق البدو القريبة فأدى ذلك الى تدخل بعض الجيران الأقوياء أمثال بني خـــالد من الحسا وآل المكرمي من نجران، ولكنهم عجزوا عن وقف تقدم الوهابيين .. وكان أشراف مكة يتهمون حجاج نجد الوهابيين بالمروق من الدين ، ولذلك كانوا يمنعونهم من زيارة الأماكن المقدسة ..

وكانت تقارير الأشراف في هذا الشأن ، التي بعثوا بها الى الباب العالي ، في اسطمبول ، عـــام ١١٦٢ هـ. (١٧٤٨ – ١٧٤٩ م.) أول ما وصل الحكومة العثمانية من أخبار هذا المذهب الجديد . »

الفصل الثالث

- ١ -

وصف محمد بن سعود في كتاب "لمع الشهاب"

ثراء محمد بن سعود - كرمه - حبه لقومه ورغبته في تكاثرهم لولاه ما رحل أحد .. الى الدرعية

قال صاحب « لمع الشهاب »

« ذكر الثقات من المخبرين عن شأن محمد بن سعود أنه كان رجلاً كثير الخيرات والعبادة ، وكان أبوه سعود وجده محمد واليين في الدرعية ، وهو - أعني محمد - كان كريم الطبيعة ، ميسّر الرزق ، له أملاك كثيرة من نخل وزرع ، وله عدد من المواشي . قيل من سخاوته أن كان الرجل يأتيه من البلدان يطلب شيئاً كثيراً لوفاء دين عليه فإذا عرف أنه محق أعطاه إياه ، حتى أنه ، في بعض السنين ، وفد عليه رجل من أهل بريدة اسمه ناصر بن ابراهيم وكان تاجراً لكنه أفلس ببعض أموال الناس صرفها في مهمات نفسه ، وكان الذي عليه أربعة آلاف ذهب ، فلما

وصل الدرعية ، أبدى الأمر لمحمد بن سعود وقال : يا شيخ، « وكان آنئذ يلقب بالشيخ ، حتى حين متابعته للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فمنع الناس أن يقولوا للحاكم الشيخ ، وإنما ذلك خاص بأهل العلم » .. فأعطاه أربعة آلاف ذهب ولم يبال .

فقال له أولاده ، غير عبد العزيز : ما هذا التبذير .. تعطي رجلاً لا تعرفه إلا بالاسم هذا المبلغ الخطير ؟

فقال : « نعم ، يا أولادي ، الدنيا إنما جعلت لكرامة بني آدم ، فالخيّر منهم ذو الشرف إذا ذلّ ينبغي إعانته بما يمكن لئلا يزدريه السفل. هذا ناصر بن ابراهيم ، قد سمعتم به ، انه كان ذا مالٍ وشرف وقد اضطره الزمان ، فعلى الناس الكرام إبداء الخير لمثله ! »

هذا والمعهود من محمد بن سعود انه ليس يرى أحداً شاباً من أهل بلدته وجماعته غير متزوج إلا سأل عن حاله فاذا قيل له لا يمكنه جهاز ، جهّزه وأمره بالزواج ، فإذا امتنع أحد أن يعطي بنته لشخص خطبهـا وهو كفؤ ، سار محمد بن سعود بنفسه اليه وعاتبه في رد ذلك وربما يشترط على نفسه ان اعطوا هذا فلانة فإن أصابها منه ضرر من كسوة أو متاع أو مسكن فأنا ضامن به ، وكان كذلك يفعل حيث وقع الشرط لا محالة، وذلك لحسن سيرته وسريرته يريد التئام جماعته و كثرة خيرهم بالتناسل والتساعف .

وكان يحب الخلوة ، قيل انه كان يأتي البيت فيجلس وحده ولا يريد أحداً من أولاده أو نسائه أن يدخل عليه،ويبقى على هذه الحال مستمراً سبعة أيام أو أكثر.

وكان لا يرضى بالحرب مع أحد ولو عيل عليه ، ودائماً يأمر جماعته باطفـاء الفتن ، لكن قومه أهل حقد وخدع كثير ولم تصف قلوبهم على من جـاورهم من البلاد ، ولهذا لولاه لما رحل أحد ببيع أو شراء اليهم لأن في نفوسهم غلظة !

هذا ما صحّ لدينا من خصاله وأفعاله . »

- ٢ -

أساليب الحكم والسياسة
في عهد محمد بن سعود وأولاده

وصف صاحب اللمع ، في الباب الرابع من كتابه ، سياسات محمد بن سعود وأولاده ، وها نحن ننقل وصفه ، هنا ، بنصه ، بعد أن حذفنا منه ما يختصّ بعبد العزيز وخلفائه ، لنثبته في موضعه ، عند الكلام على عبد العزيز .

قال صاحب « اللمع » :

« أعلم أن محمد بن سعود ، لما استقر له الأمر بتوسط الدين الذي أخرجه محمد بن عبد الوهاب «بقي كما» علمت هو وأولاده على العهد فلم يخرجوا مما عاهدوا عليه محمد بن عبد الوهاب وأولاده كما وقع الشرط أولاً .

الحصون ، والامناء

وكان شأن آل سعود حينئذٍ ، حيث تولوا بلداً كبيرة أو كورة ، بنوا حصناً في تلك البلد على حدة عن حصنها الأول إن كان لها حصن ، ويحثوا حوله خندقاً إن كانت أرضه صلبة ، وأحكموا بنيان القلعة ورتّبوا في الحصن قدر خمسمائة رجل عسكري ، أو ألف رجل على قدر البلاد وخراجها وسموهم « الأمناء » ، إما

من أهلها أو من غيرها من البلاد ، ولكن بشرط كشف حالهم عن الاستقامة التامة بحسب الإعتقاد بهذا الدين ، ويعينون لهؤلاء متاعاً كثيراً ، ربما يكفيهم سنتين أو ثلاثاً ، بما يدخر ، ويجعل في الحصن أيضاً بارود وبنادق كثيرة كذلك ، وربما جعلوا في بعض الحصون مدافع ، ويعين لأولئك الجنود مدخول كثير ، مثلاً يبلغ أجر كل واحد من هؤلاء الجند ثلاثمائة أو أربعمائة ذهب في آخر العام ، وذلك لأنهم اتخذوهم حفاظاً للبلد عن كل أحد ، وهذا الجند المرتب لا حاكم عليهم غير عشرة رجال منهم أمراء يحكمون بموجب ما لهم من اجازة الحكم الذي عينوا فيه.. فان اتفقوا فعلوا وأطاعهم الجند وإلا فلا ، وطاعتهم لهم بالنسبة لما قرّره إمام المسلمين وبيّنه ، وإن اتفقوا على غير ذلك فلا طاعة لهم قط ، وهم لا يخرجون عن الحصون أصلاً .

القاضي والمفتي

وكانت عادتهم أن يجعلوا في كل بلدة كبيرة قاضياً ومفتياً ، وفي الصغيرة قاضياً فقط ، ويعينوا لهم خرجاً من بيت المال .

وأيضاً يرتبون في كل بلد عمالاً لأخذ الزكاة ، مثلاً بعض البلاد يجعل فيها أربعة وبعض سبعة بحسب الكبر والصغر وكثرة المدخول وقلته ، وهؤلاء غير الحكام ، فان الحاكم لم يجعلوا له تولية في أخذ المال قط .

المحتسب (او المطوع)

وكانوا يجعلون في كل بلد محتسباً يتفقد أحوال الناس بالتجسس عما هم عليه من صدق النية بالطاعة لهذا الدين ، وما هم فيه من المعاملات الدنيوية كالبيع والشراء ، كأن ينقصوا المكيال والميزان أو يفسد أحدهم بلصاصة أو تعدٍ على أحد ، أو يعدل القضاة عن اقامة حدود الله بأخذ رشوة ، والحكام كذلك ..

الحاكم والامير

ويجعلون في كل بلدة حاكماً من قبلهم ، وينزعون من كان حاكماً قبل ايالتهم ، ويجعلون في كل كورة أميراً ، وهو أعظم شأناً من سائر حكام البلاد ، لأنه قاهر على كل من في الكورة ، وكانوا يقولون للأمير والقاضي والمفتي والعمّال : عليكم بالتوافق في التدابير وجواري الأمور .

مع أهل البادية

وأما شأنهم مع أهل البادية ، فكانوا يقرون أمراءها القدماء فيها، ولا يعزلونهم وينصبون أناساً من غيرهم . نعم ، إذا تمرد أحد منهم عزلوه وجعلوا أخاه أو ابن عمه مقامه ، ذلك لأنهم عرفوا أن البدو لا ينقادون أتمّ الانقياد إلا للكبير منهم ، وكانوا يجعلون في كل قبيلة قاضياً أو مفتياً وإمام صلاة ، يقيمون لهم الصلاة جماعة ، ويبيّنون لهم حدود الله وأحكامه .

وكان البدو ، قبل خروج هذا المذهب ، يتحاشون عن متابعة الشرع .

وكان الأمراء إذا علموا من أكابر البداة من يبذل النفس في النصح والإخلاص لهم وللدين جعلوا أكثر خراج طايفته له،بل ربما قالوا له يكفينا منك مجرد الطاعة، وزكاة قومك لك !

لا يضربون ولا يقتلون غدراً

وكانوا إذا رأوا الخلاف من أحد من أهل المناصب والأعيان ، خلافاً كلياً ، من البداة وغيرهم ، يؤدبونه بعزل أو حبس ، ولا يضربونه ، فان ألجأهم الأمر إلى أن يقتلوه قتلوه جهاراً إن تمكنوا منه ، ولا يقتلونه غدراً وغيلة بنحو سمّ ، وإذا وقع بين رعاياهم حرب أو قتل أو مطالبة مال يحملونه على منهاج الشريعة.

لا تجبر .. ولا حجاب

ومن جملة وضعهم في الحكومة أنهم تركوا التجبر والتحجب ، وأخذ شيء من أموال الناس بلا وجه بيّن ، حيث أنهم يدعون أنهم على مسند رسول الله (ص) .

وكان الغني والفقير عندهم بمجال ، ولهذا لا يجسر أحد ذو مال أن يتعرض بشيء على أحد ، حتى الشتم والسب رفعوه ، فلو قال أحد لأحد : يا فاسق ، أو يا كلب ، أو نحو ذلك التزم بهذه الدعوى ورفع أمره إلى حاكم الشرع ، ولو كان الإمام نفسه ..

الجلاء للمذنب .. ورواتب لأسر الشهداء

وكان من جملة أوضاع حكومتهم ، إذا أرادوا ردّ المعتدي ، فإنهم إما أن يأخذوا منه مالاً كثيراً ، إن كان له ، أو يجلوه عن وطنه الى غير ملكهم أو الى بلد نائية عن بلده وهي تحت يدهم .

وإذا مات أحد من الزهاد أهل الورع ، أو مات أحد من رجال الحرب ، أو قتل أحد منهم وكان له عيال ضعفاء من رجال ونساء ، قرروا لهم قدر الكفاية ، ويتفقدون أحوالهم .

وهذه كلها أوضاع وضعها محمد بن عبد الوهاب

الشعب وديون الدولة

وقد يقع عليهم ، في بعض السنين ، دين كثير لا يفي بيت المال بوفائه ، فيشهرون أنهم « مقروضون » بذلك ، ولا يفي بيت المال به ، فيشيع هذا بين الناس ، « فيجيبون » اليهم ، كل بقدره من المال ، حتى يوفوا ذلك كله ، وهذا يحصل عن طيب نفس ، لا عن قهر وقوّة .

وكان ذلك في ابتداء أمرهم بالحكومة ، لما كانت نجد وحدها بيدهم .

بيت المال

وكان من سياستهم أنهم يضبطون كل الداخل في بيت على حدة ، ويسمونه : « بيت المال » ، ولا يسلطون عليه من شاؤوا ، بل لهم قواعد تؤخذ منه بقدر الخرج المعتاد ، فيزيدون الخرج شيئاً فشيئاً حسب اتساع الملك ، وهذا بأمر من محمد بن عبد الوهاب .

نفقة الجهاد .. على المجاهدين

وكان من عادتهم في الحروب أن يعينوا على كل قبيلة وكل قرية أو مدينة أناساً للجهاد ، ولم يجعلوا لهم وظايف أصلاً ، بل يقولون هذا واجب عليكم ، حتى الذخيرة على من خرج للجهاد ، وكانوا يقولون لكبير الطائفة وأمير البلد : رتبوا نفراً للجهاد حيث أردنا وأمرنا ، فكانوا حسب ما أمروا به .

تضليل العدو عن مقاصدهم .. وجواسيسهم

وكانوا.. لا يؤمرون على الجيش إلا أحداً من بينهم ، أو رجلاً من أهل البادية.
وإذا أرادوا أن يغزوا مكاناً شيعوا اننا نريد المكان الفلاني ، وهم قاصدون غيره لئلا يبلغ خبرهم أهل تلك الديار فيحترزوا منهم .
وكان لهم جواسيس في البلدان التي لم تكن تحت امرتهم ، يترقبون الأخبار ويرفعونها اليهم .

- ٣ -

محمد بن سعود والحكم

من يقرأ ابن غنام أو ابن بشر ، يخيّل إليه أن حكم الدرعية كان في يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحده، قال ابن بشر: « كانت الأخماس والزكاة وما يجيء الى الدرعية من دقيق الأشياء وجليلها تدفع إليه بيده ، ويضعها حيث يشاء ، ولا يأخذ عبد العزيز ولا غيره من ذلك شيئاً إلا عن أمره ، بيده الحل والعقد ، والأخذ والإعطاء » .

ويؤيد صاحب « اللمع » هذا الرأي ، فيقول : « إن الإمامة الكبرى ، وهي إمامة الدين » ، كانت لمحمد بن عبد الوهاب، وكذا ما يتبعها من مصالح الدنيا ، كتدبير الحروب والمصالحة والعداوة وما يرجع الى آلة الحرب وما يتعلم لأجله ، حيث أن محمد بن عبد الوهاب كان عاقلاً مدبراً متأملاً في الأشياء عارفاً بجميع العلوم ، ومن جملة نكته التي تشعر بتدبير الحروب أنه كان يأمر أهل الدرعية بتعلم رمي البندق ، وهو الذي استخرج لهم هذه « البنادق » التي كانت لهم ، وكان لهم قبل في نجد « تفقان » دون هذه ، على طور ما لأهل اليمن .

والحاصل أن الأمر كله صار بيد محمد بن عبد الوهاب ، بحيث أن كل شيء أراده محمد بن سعود وأولاده رجعوا بـه الى محمد بن عبد الوهاب ، فإن ارتضاه ارتضوه ، وإن أباه أبوه .

وكانت العادة جارية بأن محمد بن سعود يزوره كل يوم مرتين، صباحاً ومساءً، هو وابنه عبد العزيز وبقيـــة أولاده ، وكانوا يجلسون عنده متأدبين صامتين ، لا ينطقون بشيء ما لم يحادثهم به أولاً ..

ثم ان أمر محمد بن عبد الوهاب قوي قوة تامة ، وصار جميع أهل الدرعية في قبضته ، وكذلك من حواليها من أهل القرى والرساتيق » .

وفي اعتقادنا أن هـذا الكلام مبالغ فيه ، فقـد كان الحكم في الدرعية مشتركاً بين محمد بن سعود وابنه عبد العزيز وبين الشيـخ، فمحمد بن سعود هو رئيس الدولة الدستوري ، وعبد العزيز القائد العام – أو وزير الدفاع – وكان الشيخ بمنزلة وزير المال والخارجية والمعارف، والدعوة والشؤون الدينية (أعني شؤون القضاء والإفتاء والتدريس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك .)

كانت دعوة الشيـخ شغل الناس الشاغل ، وكانت تربق عليه ، بطبيعة الحال ، صفة الزعامة الروحية والشعبية ، وقد يزيد في بهاء الشيـخ وشهرته ما عرف عنه من الكرم ، ولكن هـذا لا يعني أنه كان مستأثراً بالأمور ، وإنما كان زعيماً ومشيراً مسموع الكلمة ، مطاعاً ومحبوباً .

وخلاصة القول أن الأمير والشيـخ كانا – كما وصفهما «فيلبي»– متفقين تماماً « في كل تصرفاتهما ، كما لو كانا شخصية واحدة لها وظيفتان في الحياة .

ويقال إن محمد بن سعود وخليفته عبد العزيز لم يقوما بأي مشروع أو يصدرا أي قرار ذي شأن الا بموافقة الشيـخ وبركته . وقلما نجد لهذا التعاون المنسق الذي دام زهاء نصف قرن مثيلاً .

هكذا كان سلطان الشيـخ في تصريف شؤون البلاد.. لقد أصبح يعتبر شريكاً مؤسساً »[1] .

---

(١) تاريخ نجد ، لفيلبي ، ترجمة الديراوي .

- ٤ -

محمد بن سعود والقيادة

كانت المعارك في عهد محمد بن سعود مستمرة ، وكان يقودها بنفسه في أول الأمر ، ثم تخلى عن القيادة لابنه عبد العزيز ، وما ندري أكان ذلك نتيجة لمرض أصيب به ، أم لكبر سنه ، أم لحزنه ووجده على ولديه فيصل وسعود، أم لأسباب أخرى ، ولكن المتتبع لأخبار آل سعود، في الماضي البعيد والقريب، يجد الحاكم منهم ، متى كبر ، حريصاً على اشراك ولي عهده في أمره والتخلي له شيئاً فشيئاً عن سياسة البلاد ، وأول ما يتخلى له عنه قيادة الجيوش ، ولا يخلو ذلك من حكمة ، لأنه يمهد الطريق أمام ولي العهد للامارة المنتظرة .

يقول « فيلبي » إن شعب الدرعية كان يذكر محمد بن سعود « بما كان يتحلى به من إنسانية وتقوى أكثر من شجاعته وإقدامه في الحروب . وإن الهجوم الوحيد الذي اشترك فيه هو غزوه الرياض سنة ١٧٥٠ م . ، أما بعد ذلك فقد ترك القيادة لأميري العينة، عثمان ومشاري، ومن بعدهما لابنه ووريثه عبد العزيز .» ، وهذا القول ينطوي على التشكيك في شجاعة محمد بن سعود ، وإن كان يضفي عليه فضيلة التقوى !

وأكبر الظن أن الأمير محمد ما تخلف عن المعارك الا بسبب اعتلال صحته وكبر سنه ، وقد ذكر « مانجان » أن محمد بن سعود عاد من إحدى غزواته

محموماً ولزم فراشه مدة، فلم تعد صحته لتتحمل مشقة الحروب ، وإن كانت نفسه الكبيرة بقيت متجملة بالشجاعة والصبر .

إن الرجل الذي يقف مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويحميه حين تألبت عليه قوات أميري الأحساء والعيينة ، وغيرهما من امراء نجد ، الكبار والصغار ، لا يمكن اتهامه بالجبن لتخليه عن القيادة لابنه ، فهذا استنتاج في غير موضعه ، ولو أن الأمير محمد أصرّ على قيادة المعارك مع ضعفه وكبر سنه لعد ذلك من سوء الرأي !

أما تركه القيادة العليا فترةً من الزمن لأمير العيينة ، فلم يكن ناشئاً عن جبنه وخوفه ، وإنما كان سياسة منه لتألفه وجلبه الى صفه ، وقد أنف من السير تحت لوائه ، فانتدب لذلك ابنه عبد العزيز !

ومهما يكن الأمر ، فإن محمد بن سعود والشيخ كانا يشتركان في تجهيز الجيوش الغازية ، وإن لم يشتركا بنفسيهما في الغزو ، وقد يكون بقاؤهما في البلد أنفع من خروجها للقتال ، وفي سيرة أبي بكر وعمر ما يثبت لنا أن بقاء الأمير على رأس عمله في العاصمة ربما كان أفضل للمسلمين من خروجه وقتاله وتعرضه للموت ، فقد يغني غير واحد غناءه في الحروب وأكثر ، ولكنه لا يجد من يقوم مقامه في ادارة الدولة وسياسة الشعب .

- ٥ -

الصّلات بين نجد وأشراف مكّة

مناظرة بين علماء مكة وعلماء نجد ، ومنع الحج ..

لا يذكر لنا ابن غنام ، في كل الصفحات التي كتبها عن الغزوات والوقائع التي حدثت خلال حياة محمد بن سعود ، كلمة واحدة عن أشراف مكة .

أما ابن بشر ، فنجد عنده هذا الخبر الصغير الغامض، في أخبار سنة ١١٦١هـ.:

« وفيها حبس مسعود بن سعيد ، شريف مكة ، حاج نجد ومات منهم في الحبس عدة . »

لماذا أغفل مؤرخا نجد هذه الحادثة أو تنقصا من قدرها ، ولماذا سكت أمير الدرعية عن عمل شريف مكة ؟

أكبر الظن أن محمد بن سعود لم يكن يملك يومئذ وسائل الثأر والرد ، فلم يشأ أن يلقي بنفسه في التهلكة ، ولكن الرد جاء بعد سنوات طويلة ، حين دخل سعود الكبير مكة ، وكتب علماؤها قراراً بل إقراراً بأن دعوة محمد بن عبد الوهاب هي دعوة الاسلام .

وقد أشار الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ الى حبس الأشراف حاج نجد ، في كتابه « المقامات » ، قال :

« وكذلك ما جرى من حرب أشراف مكة لهذه الدعوة الاسلامية .. وذلك

أنهم من أول من بدأ المسلمين بالعداوة ، فحبسوا حاجهم ، فمات في الحبس منهم عدد كثير ، ومنعوا المسلمين من الحج أكثر من ستين سنة ، وفي هذه المدة سار اليهم الشريف بعسكر كثيف .. وقدم أخاه عبد العزيز قبله .. فنزل قصر بسام، وأقام يضربه بالمدافع والقنابر وجرّ عليه الزحافات ، فأبطل الله كيده .. »

ونستطيع تصحيح كلمة « ستين » ، الواردة في المقامات ، بكلمة خمسين ، أو اثنتين وخمسين ، لأن منع الحج ، الذي بدأ عام ١١٦٢ ، انتهى عام ١١١٤ .

لقد حاول أهل نجد ، خلال هذه المدة ، أن يحصلوا من شرفاء مكة على إذن لهم بالحج ، فكانوا يردونهم دائماً خائبين ، ويقول المؤرخ التركي « جودت باشا » : « ان هذه المحاولات تكررت في عهد الشريف سرور بن مساعد » ، ويردف قائلًا: « لم يستشر سرور أحداً ، حين استأذنه الوهابيون في الحج ، ولكنه طلب منهم لقاء ذلك مئة رأس من خيل العجمان ، فرفضوا ، وكانوا يخفون في أنفسهم أنهم سيؤدون الحج يوماً بقوة السيف . »

وكان شريف مكة مسعود بن سعيد هو أول من منع حاج نجد وآذاهم خلال ولايته التي انتهت عام ١١٦٥ هـ.

ويقول أحمد بن زيني دحلان ، في « الفتوحات الاسلامية » :

« ولما قام محمد بن عبد الوهاب ومن أعانه بدعوتهم .. ملكوا قبائل الشرق ، قبيلة بعد قبيلة ، ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز ، وبلغ ملكهم قريباً من الشام .

وكانوا في ابتداء أمرهم أرسلوا جماعة من علمائهم ، ظناً منهم انهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب والمين ، فلما وصلوا الى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تمكلوا به ، ردّ علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها ، وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم .. ونظروا الى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات ، فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم عند قاضي الشرع بمكة ما يتضمن الحكم بكفرهم بتلك العقائد ، ليشتهر بين الناس أمرهم فيعلم بذلك الأول والآخر ، وكان ذلك في مدة

امارة الشريف مسعود بن سعيد المتوفى سنة ١١٦٥ هـ.

وأمر بحبس أولئك الملاحدة فحبسوا ، وفرّ بعضهم الى الدرعية فأخبروهم بما شاهدوا ، فازدادوا عتواً واستكباراً . – كذا ! . . –

وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج ، فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلة تحت طاعة أمير مكة . . »

ويقول جودت باشا ، في تاريخه :

« أرسل الوهابيون ثلاثين عالماً من علمائهم لمناظرة علماء مكة ، وكان أمير مكة وقتئذ الشريف مسعود بن سعيد ، فطلبوا منه الإذن بالحج ، فأذن لهم ، بشرط أن يؤدوا الرسم المفروض ، وقد فحص علماء مكة عقائدهم فوجدوها (كما زعموا . .) محتوية على كثير من الأباطيل ، واستصدروا من قاضي مكة فتوى بتكفيرهم وأودعوا السجن . »

الفصل الرابع

مراحل انتشار الدّعوة سلماً وحرباً
وأخبار الرّدة والعصيان

البلدان التي قبلت الدعوة وبايعت

لم يكد الشيخ يستقر في الدرعية ، حتى شرع يرسل كتبه ودعاته الى سائر بلدان نجد ، يدعو الناس والرؤساء الى عقيدة التوحيد ، فاستجاب له عدد من الافراد ، في مختلف أنحاء البلاد ، وكانوا يستخفون حيناً حتى لا يلحقهم أذى ، ويستعلنون متى ساعدتهم الظروف على ذلك ، وقد هاجر عدد منهم غير قليل الى الدرعية ، فراراً بدينهم وأنفسهم من الأذى والفتنة ، وطمعا بأجر الجهاد وصحبة الشيخ .

وكما انضم الى الدعوة أفراد متفرقون ، فقد دخلت الدعوة جماعات ، أعني بلداناً بكاملها ، بايع أهلها ورؤساؤها للشيخ ولمحمد بن سعود .

والأمر الذي يلفت النظر حقاً ، هو أن البلدان التي دخلت في الدعوة ، منذ وصول الشيخ الى الدرعية عام ١١٥٧ حتى عام ١١٧٦ ، أي خلال عشرين سنة ، انما بايعت بطوعها واختيارها ، لا بقوة السيف ، كما توهم بعض المؤرخين الأجانب ،

أستثني بلدة أو بلدتين .

وهذه هي أسماء البلدان المهمة التي انضمت الى الدعوة وبايعت الشيخ ومحمد بن سعود :

« الدرعية – العيينة – منفوحة – ضرمى – حريملاء – العمارية » .

وفي سنة ١١٦٩ بايعت « القويعية » .

وفي سنة ١١٧١ بايعت « الحوطة والجنوبية » .

وفي سنة ١١٧٢ بايعت « المحمل » و « ثادق » و « القصب » .

وفي سنة ١١٧٥ بايعت « الفرعة » .

ويلاحظ أن أكثر هذه البلدان من العارض ، ولذلك كان الناس إذا تكلموا عن أنصار الدعوة ، قالوا : أهل العارض .

الرياض – وقد حنت مدينة الرياض رأسها وطلبت الهدنة ودفعت مالاً كثيراً ووعدت بالمؤازرة وطلبت علماء يعلّمون أهلها التوحيد ، ثم نقضت عهدها ..

جلاجل وسدير – ويذكر ابن بشر ، في أخبار سنة ١١٧٧ أن عبد العزيز سار إلى جلاجل ، من بلدان سدير وقطعوا منه نخيلا ، وحصل بينهم قتال ، وهزموا فزع البلد ، وقتلوا من أهلها نحو عشرة رجال ، ثم انه طاح عليهم « سويد » ، أمير جلاجل ، وجميع أهل سدير ، وبايعوا .. »

حوادث الردة والعصيان

كانت العيينة وحريملاء ومنفوحة وضرمى من أوائل البلدان التي دخلت الدعوة وبايعت ، ولكنها لم تثبت حتى النهاية ، وسنلمّ بشيء من أخبارها في الصفحات التالية .

ومما يجب التنبيه اليه منذ الآن ، هو أن حوادث الردة والعصيان ، بين الأفراد والبلدان ، تكاثرت خلال عامي ١١٦٦ و ١١٦٧ ، ولذلك قرر الشيخ التغلب عليها بمزيد من الجهد في ميداني السلم والحرب .

الشيخ يعقد مؤتمراً في الدرعية

وفي عام ١١٦٧ عقد الشيخ مؤتمراً في الدرعية ، دعا اليه كبار أنصاره ، من مختلف البلدان ، للتذاكر في أحوال المسلمين ، وما يجب عمله ، ويصف لنا ابن غنام هذا المؤتمر ، فيقول :

« .. جمع الشيخ أهل الاسلام من جميع البلدان ، وبيّن المواعظ في الكلام غاية البيان ، لما تظاهر من تظاهر بالردة والخذلان ، وأوضح ما يجري على أهل التوحيد من فجار العبيد .. وكشف لهم معاني آيات القرآن .. وبشرهم بالنصر والظفر ، إن برحوا على الدين واستقاموا ، ولم يبرحوا عنه بل ثبتوا وداموا ، وأمرهم بالرجوع الى الله والتوبة ، وصدق النية والأوبة .

.. فتصدقوا بصدقات كثيرة ، وسألوا الله النصر وتيسيره . »

أخو الشيخ .. أحد رؤوس الفتنة

وكان الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ، أحد رؤوس الفتنة ، فلم يكتفِ بتحريض أهل حريملاء ، التي كان فيها قاضياً ، على العصيان ، وإنما أراد أن يفتن أنصار أخيه في كل بلد ويرجعهم عن معتقداتهم ، فراسل شيوخ البلدان وأرسل اليها الدعاة ، وفي عام ١١٦٧ – كما يقول ابن غنام – أمسك أنصار الشيخ رجلاً وصل العيينة ، وكان معه كتاب من الشيخ سليمان « فيه شبه مزخرفة » قرأها « في المحافل والبيوت ، وألقى في قلوب أناس من أهل العيينة شبهاً مضرة .. غيّرت قلوب من لم يتحقق بالإيمان » ، وقد أخبروا الشيخ بأمر هذا الرجل ثم قتلوه ، وأرسل الشيخ الى أهل العيينة رسالةً أبطل فيها أقوال أخيه وتمويهاته ..

ولم يكتف الشيخ ، طبعاً ، بهذه الحملة « الدعائية » ، وإنما أتبعها بحملات حربية ، وقد أعذر من حذّر وأنذر ..

حريملاء

بايع أهل حريملاء للشيخ ومحمد بن سعود منذ عــام ١١٥٨ ، واشتركوا في معارك الدعوة وكان لهم فيها بلاء حسن .

وفي عــام ١١٦٥ ثار نفر من أهــل حريملاء على أميرهم « محمد بن عبد الله بن المبارك » ، الذي نصبته عليهم الدرعية وطردوه ، ثم عاد اليهم فقتلوه ، وكان قاضي حريملاء ، في تلك الأيام ، الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ، وهو أخو الشيخ ، وكان مخالفاً للشيخ في أفكاره وعدواً لدعوته .

وفي عام ١١٦٨ غزا عبد العزيز بلدة حريملاء بثمانمائة رجل ، واستدرج أهلها الى الخروج من البلدة ، متظاهراً بالهزيمة ، فخرجوا وتبعوه ، وكان كمن لهم كمينين ، فهجم عليهم وانهزموا هزيمة منكرة ، وقتل منهم نحو مئة رجل وفر الآخرون وتفرقوا في الجبال والشعاب ، وانتهز أمير ضرمى فرصة خلو البلدة من المقاتلة فدخلها بنفر قليل كانوا معه وأرسل الى عبد العزيز يبشره بالفتح ، فجاء عبد العزيز « واستولى على البلد ونادى فيها بالأمان لأهلهــا الا من كان قد أحدث حدثاً .. وصارت دورها ونخيلها غنيمة للمسلمين ، واستعمل فيها مبارك بن عدوان أميراً » وهرب قاضيها سليمان بن عبد الوهاب [1] .

منفوحة

في عام ١١٦٦ نقضت منفوحة العهد، وطردت الامام المنصوب للصلاة بالناس ، وسيطر أعداء الدعوة على أمور البلد ، فلم يستطع المتمسكون بعقيدتهم الا الهجرة

---

(١) – يقول ابن غنام ان عبد العزيز توقف في حكم أهل حريملاء ، وسأل الشيخ رأيه في ذلك فأفتاه بأنها فيء للمسلمين ، فأقبل « عبد العزيز بتلك الأموال والغنائم الى الدرعية ثم وقعت فيها المقاسم » .

ويذكر ابن غنام أن أهل حريملاء كانوا عدوا ، عام ١١٦٦ ، عدوة على اهل الدرعية ، ولكن ابن بشر لا يشير الى هذه العدوة الغامضة .

منها الى الدرعية وغيرها من بلدان الدعوة ، وقـــد أحصي من هاجر منهم في يوم واحد بسبعين رجلًا .

وقد قام عبد العزيز، خلال حياة أبيه بأربع غزوات ضد منفوحة، في الاعوام ١١٦٩ و ١١٧٠ و ١١٧٤ و ١١٧٥ ولكن القدر أراد أن يتم خضوعها بعد وفاة محمد بن سعود .

ضرمى

وفي عام ١١٦٤ نقض رئيس ضرمى « ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن » عهد محمد بن سعود والشيخ ، وقتل ثلاثة من كبار أنصار الدعوة في البلد ، ولم يمض على ذلك سوى أربعة أشهر حتى قام عليه آل سيف، ومعهم أنصار الدعوة، وقتلوه، وولى عبد العزيز أميراً جديداً في ضرمى .

وفي عام ١١٦٨ حاول أحد وجهاء ضرمى، واسمه « الغفيلي »، أن يخلع رئيس ضرمى وينقض العهد واستنجد لذلك بأمير ثرمداء فأمده بجيش ، ولكن الدرعية أبلغت بالأمر فأرسلت هي أيضـــاً مددا كافيا الى أمير ضرمى ، فجرى قتال بين الفريقين ، قتل خلاله من جيش ثرمداء نحو ستين وهرب الباقون ، وبقيت ضرمى على ولائها .

قصة العينية وأميرها

كانت « العينية » من أجل بلدان نجد وأجملها وأغناها ، ويقول « ابن بشر » عن أميرها « عبدالله بن معمر » المتوفى عــام ١١٣٨هـ ، إنه لم يذكر مثله ، « في زمانه ، ولا قبل زمانه ، في نجد ، في الرياسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث » .

وفي عام ١١٣٨ هـ . وقع فيها وباء أفنى أكثر أهلها ، فضعفت البلد ، لتناقص سكانها ، ولكنها بقيت قوية بأموالهـا وسلاحها ، وتولى رئاستها محمد بن حمد بن عبد الله ، خلفاً لجده الذي مات في الوباء ، وكان يلقب بـ«خرفاش» ، ثم خلفه بعد موته أخوه « عثمان » .

جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى العينية في عهد أميرها الجديد «عثمان» ، عام ١١٥١ ، فأحسن قبوله وأكرمه ، وعرض عليه « التوحيد » وطلب منه نصرته ، فنصره ، كما نرى ذلك مفصلا في سيرة الشيخ .

ويقول ابن بشر في أخبار سنة ١١٥٨ :

« وفي هذه السنة ، أو التي بعدها ، بايع عثمان للشيخ على دين الله ورسوله » .

فهل يعني هــذا أن عثمان كان ، من قبل ، نصيراً للشيخ ، ولكنه لم يكن من جماعته وأهل دعوته ؟

أم يعني أن عثمان ، بعد خروج الشيخ من بلدته ، أصبح كالمشكوك في ولائه إن لم نقل كالمرتد ، فلما جاء الى الدرعية ، بعد هجرة الشيخ اليها ، صالح الشيخ ،

وجدد بيعته له ، وعاهده على النصرة ؟

أكبر الظن أن الرأي الثاني هو الصحيح !

ومهما يكن الأمر ، فإن الصلات بين الأمير عثمان وبين الأمير محمد ، كانت حسنة دائماً ، وقد زوّج محمد ابنه عبد العزيز ببنت الأمير عثمان ، ولو كان بينهما أي عداء لما فعل ، بل نستطيع القول إن الصلات كانت حسنة بين أسلاف عثمان ، وبين أسلاف محمد أيضاً ، فقد رأيناهم يتناصرون ويخرجون إلى القتال مجتمعين[1].

وفي عام ١١٥٩ اشترك عثمان في هجوم المسلمين على بلدة الرياض ، ولكنه تقاعس عام ١١٦٠ عن نصرة المسلمين ، فقاموا بغزو الرياض وحدهم.. ثم خاف تهمة النفاق والخيانة ، فوفد على الدرعية واعتذر عن قصوره وعاهد على الجهاد كلما طلب منه ذلك ، فصدقوه وعظموه ووعدوه ان يكون هو رئيس الغزو ، مع انه كان تورط في عمل فظيع ، ذلك أنه جمع عنده أمير الرياض وأمير ثرمداء ، وتعاهدوا على مكافحة الشيخ والأمير محمد ، وقد شعر مسلمو العيينة بما يدبره أميرهم ، فذهبوا إليه يستوضحونه جلية الأمر ، فموّه عليهم وقال إنه يريد مصالحة الأميرين مع الشيخ ، وإدخالهما في الدين ، وأرسل ليلاً إلى الشيخ يدعوه الى حضور الاجتماع ، ولكن الشيخ امتنع عن الحضور ، خوفاً من مكيدة عثمان ، فحاصر المسلمون القصر ، ولكن دهام بن دواس وأمير ثرمداء استطاعا الهرب تحت جنح الظلام والعودة إلى بلديهما بأمان !

وفي عام « ١١٦١ » قاد عثمان هجوماً على الرياض اشترك فيه أهل العيينه ، وأهل الدرعية وحريملاء وضرمى ، ثم قاد هجوماً ثانياً على الرياض اشترك فيه ، إلى جانب ، أولئك ، أهل منفوحة ، وكان عبد العزيز بن محمد تحت امرته .

ثم سار المسلمون تحت إمرته إلي ثرمداء ، فأخلى أهلها البلدة .. وطلب عبد العزيز من عثمان دخولها والاستيلاء عليها ، فأبى .. وكان ذلك من أكبر أسباب الشك فيه !

(١) انظر ابن بشر في سابقة عام ١٠٩٦ حيث نرى سعود بن محمد امير الدرعية يسير مع امير العيينة ضد حريملاء . وكذلك موسى بن ربيعة استنصر بأمير الدرعية ضد آل يزيد .

ثم سار المسلمون مرة ثانية تحت إمرته إلى ثرمداء ، فأتلفوا زروعها ، ولم يقاتلوا أهلها ، وانقلبوا راجعين.

مقتل أمير العيينة

لماذا رفض عثمان الاستيلاء على ثرمداء ؟

أخبر عبد العزيز والده والشيخ بفعلة عثمان ، فوجدوا فيها دليلاً على نفاقه ، وانطواء نفسه على أغراض خبيثة ، ما لبثت ان تكشفت لهما فيما بعد .

ذلك ان عثمان كان يعلم أن « ثرمداء » وغيرها من البلدان ، متى فتحت ، أصبحت ملكاً لمحمد بن سعود ، فآثر أن يحمي صاحب ثرمداء ليستعين به في المستقبل ضد من يعدّهم منافسين له ، بل مهددين لإمارته في المدى القريب ، أو البعيد !

وفي عام ١١٦٢ قاد محمد بن سعود غزوات المسلمين بنفسه ، ولم يشرك معه عثمان بن معمر ، لاشتباههم بأمره .

ويقول « ابن غنام » إن عثمان أخذ يسيء إلى أنصار الدعوة في العيينة ويمعن في إذلالهم ، ويظهر الموالاة لأهل الباطل ، فذهب وفدٌ من الموحدين إلى الدرعية، وشكوه الى الشيخ ، فلما تحقق صدق أقوالهم ، قال لهم :

« أريد منكم البيعة على دين الله ورسوله ، وعلى موالاة من والاه ، ومعاداة من حاربه وناوأه ، ولو كان أميركم عثمان .. »

فأعطوه على ذلك العهد والميثاق .

وبلغ هذا الحادث « عثمان » فزاد حقداً على المسلمين وتنكراً لهم ، وعزم على الفتك بهم وإجلائهم عن البلدة ، وكتب إلى صاحب « ثرمداء » ، وإلى أمير فرقة من البدو ، أن يحضرا اليه ، ليعيناه على تنفيذ « خطة » شيطانية رسمها بنفسه .. ويقال أيضاً إنه تلقى كتاباً من محمد بن عفالق، عالم الأحساء ، يزين له نقض البيعة ومعاداة المسلمين ، فازداد بذلك إقداماً وجرأة.. ولكن المسلمين كانوا ساهرين يقظين ، لا تخفى عليهم حركة من حركاته ، فلم يكد عثمان يفرغ من صلاة الجمعة ،

في مسجد العيينة ، حتى أحاط به نفر من المسلمين وقتلوه ، وأرسلوا إلى الشيخ والأمير محمد من يبشرهما بقتله !

بقي الشيخ محمد ثلاثة أيام يراقب « تطورات » الموقف في العيينة ، ثم ذهب إليها بنفسه ، وولى عليها « مشاري بن ابراهيم آل معمر » خلافـــاً لمشورة القتلة ، الذين أرادوا إقصاء آل معمر عن الحكم خوفاً من انتقامه منهم وإذلاله لهم .

وقد أثبتت الأيام سداد رأي الشيخ ، لأن الأمن استتب في البلدة ، وتوحدت صفوفها، ولو اختير لإمارتها رجل آخر ، لبقيت الحزازات في الصدور ، ولانقسمت البلدة على نفسها .

قام مشاري بن ابراهيم بن معمر بالغزو مع المسلمين في السنة التي تولى فيها إمارة العيينة، وقد بقي في الإمارة عشر سنوات ، وفي عام ١١٧٣ عزله محمد بن سعود ، لثبوت أمور عليه مشينة ، وولى مكانه سلطان بن محسن المعامرة ، ثم أمر الشيخ بهدم قصر آل معمر ، فهدموه ، ولعل ذلك إعـلان واضح لزوال ملكهم ، وضم العيينة إلى دولة الإسلام في نجد [1] .

---

(١) يزعم مؤلف « اللمع » ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن راضياً عن قتل عثمان بن معمر ، ولكنه سكت عن القتلة لحكمة وسياسة ، وكان يخفي في نفسه الانتقام من اهل العيينة ، فلما انقضت سنوات على مقتل عثمان ، حتى طلب الشيخ من عبد العزيز ان يخرب العيينة ويجعلها كأرض ثمود ، ففعل !

وفساد هذه الرواية ظاهر ، لأن عبد العزيز لم يخرب من العيينة سوى قصر آل معمر !

الفصل الخامس

المعارك في عهد محمد بن سعود

لا يذكر لنا مؤرخو نجد شيئاً عن المعارك التي خاضها محمد بن سعود ، قبل اتفاقه مع الشيخ ، لأنها لم تكن جهاداً لإعلاء كلمة المسلمين ، ولم تكن الدرعية يومئذ صاحبة رسالة ..

ولما جاء الشيخ الى الدرعية ، بقي فيها سنتين يدعو الى التوحيد وينهى عن الشرك والبدع والمحرمات، وكانت دعوته « سلمية » ، بالقول والموعظة، لم تستخدم فيها القوة قط ، وبعد انقضاء السنتين ، أمر الشيخ بالجهاد .. فتتابعت المعارك !

الغزوة الأولى .. العجيبة

قال ابن بشر :

« .. فأول جيش غزا : سبع ركايب ، فلما ركبوها وأعجلت بهم النجائب في سيرها ، سقطوا من أكوارها ، لأنهم لم يعتادوا ركوبها .. فأغاروا على بعض الأعراب فغنموا ورجعوا سالمين » .

هذه هي قصة الغزوة الأولى ، لم يذكر لنا مؤرخ نجد اسم البدو الذين كانوا هدفاً لها ، ولا ذكر لنا أبطالها .. ولعلهم من طلاب الشيخ المبتدئين ، لأن رجال الدرعية ، فيما نعتقد ، كانوا يحسنون ركوب النجائب فلا يسقطون عنها .

لم يشر ابن غنام الى هذه الغزوة الطريفة في كتابه ، ولكن ابن بشر كان موفقاً في إيرادها على تلك الصورة الشعرية ، لأنها تصوير بارع ، في سذاجته ، لضعف الدعوة في أول أمرها .

وقد نقل كثير من المؤلفين الغربيين قصة هذه الغزوة ، استحساناً لها ، ولعل المؤرخ الفرنسي ميشو كان يشير الى هذا الجيش ، خلال وصفه لأيام الشيخ الأولى في الدرعية ، قال : « أنكروا الشيخ في كل مكان وآذوه وطردوه، فالتجأ الى محمد بن سعود ، فحماه وساعده على نشر دعوته ، التي كانت تتفق مع أغراض الأمير « التوسعية » ، وأذِنَ له باستخدام فرقة من الجنود على نجائب، فقاموا فعلاً بغزوة موفقة على احدى العشائر » .

المعركة الأولى

ما هي أول معركة خاضها محمد بن سعود في نصرة الدعوة ؟

يتفق ابن غنام وابن بشر على أن أول من حرّكَ الشرّ:دهام بن دواس صاحب الرياض ، فقد فاجأ بلدة « منفوحة » التي انضم أهلها برضائهم الى الدعوة وبايعوا الشيخ بغزوة ماكرة ، ودخلها واستولى على قصر الإمارة، ولكن أهلها استطاعوا إخراجه منها بعد قتال عنيف .

عرف ابن دواس ، أمير الرياض ، أن ابن سعود لن يسكت عن عدوانه على منفوحة ، فنذر – كما يقول ابن غنام – جزوراً (لتاج بن شمسان ، إن قطع ابن سعود ، على الفوارة ، عادين على بلاده، فلما بلغ ابن سعود واخوانه المسلمين ذلك، تعاهدوا على أن أول عدوة يعدونها عليه تكون في قصره) ، وسار ابن سعود

برجاله مستخفين ، ليلاً ، الى الرياض ، فدخلوها وذهبوا الى القلعـة ، التي بها قصر ابن دواس ، واقتحموا باب القلعة وبلغوا الى بيوت بعض الرؤساء ، فوجدوا فيها إبلاً فعقروها ، ثم أطلقوا الرصاص على ابن دواس في عليته ، وخرجوا بعد ذلـك سالمين ورجعوا الى الدرعية .

هذه العدوة — ونسميها معركة ، تجوزاً — ليست معركة حقيقية ...

ويقول صاحب « اللمع » : « ان أول حرب أوقعها محمد بن سعود بأمر محمد ابن عبد الوهاب ، هي حرب ابن دواس ، وكان عدد غزوه إذ ذاك عشرين ذلولاً وسبع أفراس » ، ولعله يشير بذلك الى هذه العدوة ، والله أعلم !

أعظم معارك ابن سعود

من يتتبع أخبار المعارك التي وقعت في زمان محمد بن سعود يجد أن أكثرها وأعظمها كان مع ثلاثة أمراء : أمير الرياض ، وأمير نجران ، وأمير الأحساء .

ولم تنفرد بلدة واحدة من بلدان نجد بالهجوم على الدرعية ، ما عدا الرياض ، بل كانت الدرعية هي التي تبتدىء بالهجوم دائماً .

ولم تقف الدرعية ، في حياة محمد بن سعود ، في موقف الدفاع عن النفس ، إلا سنة ١١٦٠هـ. أمام الرياض، وسنة ١١٧٨ أمام صاحب نجران وأمير الأحساء.

وليس معنى ذلك أن الدرعية كانت تعتدي على جاراتها لمجرد الظلم والعدوان.. وإنما كانت تفعل ذلك انتصاراً لحليفاتها أو دفاعاً عن الدعوة وتدعيماً لها .

- ١ -

المعارك
مع أمير الرياض

لا ندري متى ظهر اسم الرياض ، فالكتب القديمة لا تتحدث عنها ، ولا نعرف أسماء الرؤساء الذين تعاقبوا على حكمها ، وكل ما نعرفه أن بلدة حجر وبقية حجر اليمامة » ، وبلدة مقرن وبلدة معكال – وكلتا البلدتين أو المحلتين على أرض حجر التاريخية العريقة – قد غابت أسماؤها في اسم جديد ، هو اسم : الرياض .

إمارة ابن دواس

ويذكر لنا ابن غنام أن دهام بن دواس ، أخرج من بلدة منفوحة ، بعد أن قتل أبوه ، وكان أميراً عليهـــا ، فالتجأ الى الرياض، في ولاية زيد بن موسى أبي زرعة ، وقد تزوج زيد أختا لدهام وولد له منها ولد ، وفي ذات يوم قتل زيداً رجل معتوه من أقربائه ، فقتله عبد لزيد يدعى (خميس) ، وتولى السلطة في الرياض ، ثم

هرب العبد خوفاً من الثأر ، وبقيت الرياض بلا رئيس .. فترأسها دهام بن دواس، مدعياً أنه انما يفعل ذلك باسم الطفل القاصر ، ابن زيد ، حتى يبلغ مبلغ الرجال ، ولكنه ما لبث أن اغتصب الامارة وطرد الطفل ..

ويصف ابن غنام هذا الأمير المغتصب بأنه كان فاجراً خبيثاً ، غريب الأطوار، بل هو يذكر أموراً عنه لا يكاد يصدقها عاقل، مثل قوله انه « غضب يوماً على امرأة فأمر بفمها أن يخاط..وغضب على رجل فقطع من فخذه قطعة وأمره بأن يأكلها».

كتب الشيخ الى دهام ينصحه ويدعوه الى قبول التوحيد ، واجتهد محمد بن سعود أيضاً في نصحه ، وكان يظن فيه حسن القبول ، لسابق فضله ، ولكن ابن دواس -مع تصريحه بأن عقيدة الشيخ هي العقيدة الصحيحة - رفض دعوة الشيخ ، وكان يصد الناس عنها ويؤذي أنصارها في بلدته .

ولعل التفسير الصحيح لموقف ابن دواس أنه كان يطمع في حكم منفوحة ، ملك آبائه ، التي طرد منها، فلما دخل أهل منفوحة في دعوة الشيخ وطاعة محمد بن سعود، تنكر الدعوة وأصحابها وناصبهم العداء .

وكان هو البادىء بالعدوان ..

ففي عام « ١١٥٩ » جمع دهام بن دواس رجاله ، وضم اليهم جماعة من البدو ، وفاجأ أهل « منفوحة » بغارة محكمة على نخيلهم ، فخرجوا لحمايته من المعتدين ، وبذلك خلت البلدة من حماتها ، وكان قد أعد لهم كمينا ، فدخل البلد واستولى على قصر الامارة ، ولكن أهل منفوحة أسرعوا في العودة الى بلدتهم وقاتلوا المهاجمين قتالاً مريراً واضطروهم الى الانسحاب .

---

١ - يقول ابن غنام ان أهل الرياض كرهوا ابن دواس لظلمه وفجوره فأجالوا بقصره وحصروه ، وأرادوا خلعه واخراجه من بلدتهم ، فاستنجد بمحمد بن سعود ، فقام محمد بنصرته أتم قيام ، وارسل اليه من الدرعية جنوداً يقودهم اخوه مشاري بن سعود ، فقاتلوا رجال الرياض المحاصرين للقصر وفرقوهم وعاد ابن دواس الى الولاية عودة المنتصرين ..

وقيل ان فزعة جاءتهم من الدرعية ، يتقدمها عبدالله بن محمد بن سعود ، ألقت الرعب في قلوب ابن دواس وجماعته وكانت من أقوى أسباب النصر .

وأصيب ابن دواس خلال المعارك بطلقين ، وتقطعت أصابع رجليه وعقرت فرسه .

وقد ذكرنا ، قبل، أن محمد بن سعود ثأر لأهل منفوحة بهجومه ليلاً على الرياض ودخوله قلعتها وعقره ابلا كانت هناك واطلاقه الرصاص على علية ابن دواس.ولكن محمد بن سعود لم يكتف بتلك العدوة اليسيرة ، فسار بأهل الدرعية وقراها ، ومعه عثمان بن معمر بأهل العينة ، الى بلدة الرياض ، فجرى بينهم وبين رجال ابن دواس ، قرب الرياض ، قتال غير كبير ، قتل فيه عشرة شيوخ من أهل الرياض ، فسميت المعركة : وقعة الشياب .

ثم سار ابن سعود ، في نفس العام ، مرة ثانية ، الى الرياض ، وقتل عشرة من عبيدها فسميت المعركة : وقعة العبيد .

الهجوم على الدرعية
واستشهاد ولدين لمحمد بن سعود : فيصل وسعود

صمم ابن دواس ، بعد الهزائم التي مني بها ، على الانتقام من الدرعية ، فجمع جموعه ، من الحاضرة والبادية ، وقصد الدرعية ، فلما بلغها أغارت خيله عليها ، فدافع أهل الدرعية عن بلدهم دفاعاً شديداً ، فتظاهر جماعة دهام بالهزيمة ، وولوا هاربين ..

ولما رأى مقاتلة الدرعية هزيمة اعدائهم وجبنهم ، طمعوا في استئصالهم ، فنصح لهم الأمير محمد بالوقوف في أمكنتهم، خوفاً من كمين يبغتهم، ولكنهم كانوا معجبين بنصرهم ، فأبوا الا أن يتبعوا عدوهم ، فخرج عليهم ، في بعض الطريق ، كمين لدهام ، وقاتلهم وهزمهم وقتل خمسة منهم ، بينهم ولدا الأمير محمد بن سعود : فيصل وسعود .

لذلك يحق لنا أن ندعو محمد بن سعود : والد الشهيدين .

هجمات متعاقبة على الرياض

ولم يمض على هـذه المعركة غـــير قليل ، حتى سار محمد بن سعود بنفسه الى الرياض ، على رأس مقاتلة الدرعية ومنفوحة وحريملاء ، وكان دهام قـــد أنذر به فاستعد له ، ومع ذلـك استطاع محمد بن سعود دخول الرياض ، ووصـل الى قصر دهام نفسه ، وضرب أحد جنوده دهاماً بالسيف وكاد يقتله ، ولكنه نجا ، وقتل في المعركة عدد غـــير كبير من الجانبين ، ثم انسحب الأمـير بجنوده ، وعادوا الى بلدانهم .

وفي عام ١١٦١ هاجم عبد العزيز بن محمد بن سعود (الرياض) مرتين ، تحت قيادة عثمان بن معمر ، وكان معها أهـــل الدرعية والعيينة وضرمى وحريملاء (وانضمت اليهم منفوحة ، في الحملة الثانية) ولم يوفق المسلمون في كلتا الغزوتين ، وخسروا أكثر من خمسين شهيداً . وربما كان ذلك بسبب مواقف أمير العيينة المريبة !

وفي عام ١١٦٢ أغار محمد بن سعود بجموع المسلمين على بـلدة الرياض ، ولم تقع بينهم وبين أهل الرياض مقاربة ، وإنما تراموا بالرصاص من بعيد .

وفي عام ١١٦٤ سارت عدوة من أهل الدرعية على الرياض ودخلتها ، ولكنها انهزمت ، وقتل فتى من أشجع فتيان الدرعية ، وهو علي بن عيسى الدروع .

دهام يطلب الصلح

وفي عام ١١٦٧ ضجر دهام بن دواس – كما يقول ابن بشر – « من الحرب بينه وبين المسلمين فطلب من الإمام محمد بن سعود المهادنة ، وبذل له خيلًا وسلاحاً وأن يقيم شرائع الإسلام في بلده ، وطلب منه أن يرسل إليهم معلمـــاً يحقق لهم معرفة التوحيد » .

نصر مؤزر للدرعية على دهام وحزبه

ولم تمضِ سنة واحدة على هذا العهد ، حتى اتفق دهـــام صاحب منفوحة على

نقض عهد المسلمين ، وحربهم .. ثم اجتمعا مع رئيس ثرمداء ، وانضم اليهم جماعة من أهل سدير وثادق وجلوية حريملاء ، وهجموا على حريملاء - التي كان عبد العزيز قد اقتحمها ونصب عليها أميراً من قبله - فدخلوا أعاليها ، ولكن أميرها قاتلهم قتالاً شديداً ، وجاءته الأفزاع من الدرعية ، فانهزمت الأحزاب .. وقتل منهم ستون رجلا ، وأسر كثيرون ، افتدوا أنفسهم بالمال .

معارك عام ١١٧١

وفي عام ١١٧١ غزا عبد العزيز الرياض مرتين ، ولم يكن بينه وبين أهلها كبير قتال ، ومما يحسن التنويه به أن عبد العزيز أمر ببناء قصر قرب الرياض ، ينزله مقاتلة المسلمين ويحصون به على أهل الرياض الأنفاس ويضيقون عليهم الخناق!

غزوات متصلة

ومنذ عام١١٧٤ الى عام١١٧٦ كانت غزوات عبد العزيز على الرياض مستمرة، يغزوها كل عام مرة أو مرتين ، وكانت الخسائر من الفريقين غير كبيرة في الأنفس ، ولكنها أتعبت أهل الرياض وأضرت كثيراً بأموالهم .

دهام يطلب الصلح

وفي عام ١١٧٧ أرسل دهام بن دواس الى الأمير محمد بن سعود يعرض عليه الطاعة ، ودفع إليه ألفي أحمر نكالا .

واشترك دهام مع الأمير عبد العزيز في غزو فرقة من عرب الظفير،فاستأصلوهم وقتلوا منهم ثلاثين رجلاً .

يقول مانجان : إن محمد بن سعود والشيخ اشترطا على « دهام » أن يعيد الى أنصار الشيخ الذين اضطروا للهجرة الى الدرعية أملاكهم التي صادرها وأن يساعد الدرعية في حروبها، فقبل، وقد رأيناه فعلاً يسير مع عبد العزيز في غزوة (جراب)

ضد عشائر الظفير .. فكانت أول لقاء بين الخصمين اللدودين !

معارك الرياض في رواية « اللمع »

قال صاحب « اللمع » :

« اتفق الأمر حينئذ أن دهام بن دواس شيخ الرياض المسمى (بحجر اليمامة) في سابق الأيام ، كره استقامة الأمر لمحمد بن سعود حاكم الدرعية بواسطة محمد بن عبد الوهاب حيث أنه كان قبل هذا يكره محمد بن سعود ويريد ذلّه ... فأخذ ابن دواس يلقي الحرب على أهل الدرعية ... فقُتِل يوماً ولدان كبيران لمحمد بن سعود ... فأخذت محمد بن سعود وعبد العزيز ومحمد بن عبد الوهاب زيادة الحمية والغيرة على الدين وحفظ العرض وصون النفوس ، فهيأوا لهم عسكراً كثيراً بشيء من أهل بلدانهم ، وشيء من العربان البداة وغيرهم من الذين عاهدوهم وصدقوا بمذهبهم ، وكذا باعطاء شيء من المال خفاء ، فقامت الحرب بينهما سنة الستين بعد المائة والألف ، ثم إن الحرب استمرت بينهما ثمانياً وعشرين سنة ولم يقع في هذه المدة صلح إلا ثلاث مرات متفرقات ، كل مرة سنة واحدة .

ان أول حرب أوقعه محمد بن سعود بأمر محمد بن عبد الوهاب – أي حرب ابن دواس – كان عدد غزوه إذ ذاك عشرين ذلولاً وسبع أفراس ثم إنه مشى عليه مرة أخرى بمائتين ثم ثالثة بخمسمائة ثم رابعة بقدر سبعمائة ذلول ومائتي فارس ثم « أنهى » ما مشى به الى الرياض ثلاثة آلاف بين راكب وماشٍ .

فأخذ أمر محمد ابن سعود يزيد شيئاً فشيئاً وشأن ابن دواس ينقص وينزل ، حتى دانت بالطاعة بلاد الرياض وقراها »

وسنرى ان دهام بن دواس نقض عهده لمحمد بن سعود ، عند وفاته .

مع صاحب نجران

في عام ١١٧٧ هـ . هجم جماعــة من « العجمان » اليمانية على فريق من عشائر سبيع، الذين دخلوا في عهد الأمير محمد بن سعود وطاعته ،وأوسعوهم قتلاً ونهباً ، فلما بلغ ذلك الأمير عبد العزيز، أسرع في اللحاق بالعشيرة اليمانية الغازية ، فأدركهم في موضع يقال له « قذلة » ، بين القويعية والنفود ، وقاتلهم قتالاً عنيفاً، فقتل منهم خمسين رجلاً ، وأسر مائتين وأربعين ، وأخذ كل ما كان معهم من المال والسلاح .

انطلق الناجون من اليمانيــة إلى بلاد اليمن ، وحطوا رحالهم في نجران ، عند رئيسها المشهور : الحسن بن هبـة الله المكرمي ، وعرضوا عليه حالهم ، وشكوا له مصابهم ، وما فعله بهم عبد العزيز، وطلبوا منه أن يثأر لهم ويستخلص أسراهم الذين يعانون ألواناً من العذاب...

واستجاب صاحب نجران لهؤلاء المستجيرين به ، لأنهم يمانية، ولم تكن العصبية قد زالت من النفوس ، وجمع المقاتلة من عشيرة « يام » ومن غيرهم من اليمانيين ، وسار بهم ، قاصداً الدرعية !

من هو صاحب نجران ؟

يقول فؤاد حمزة ، في كتابه : « في بلاد عسير » إن حسن بن هبة تولى رئاسة نجران عام ١١٧٤ وتوفي عام ١٢٤١، وإنه قحطاني ، أصل أجداده من (طيبة) ، قرب صنعاء ، وليس علوياً ... وكان أجداده قد انضموا إلى الدعوة الإسماعيلية .

ويقول صاحب « اللمع » إن حسن بن هبة الله المكرمي مختلف في أمره ، (قيل إنه شريف من السادة ، زيدي المذهب ، وقيل ليس بعربي وإنما هو هندي ، ولد بأرض نجران ، من أربعة أو خمسة أصلاب ، وصارت شهرته بالمكارم ، وهو رجل ساحر ، يتعاطى علوم السيا والحرف ، وهو عجب : في الظاهر رافضي ، وبالباطن – عند من كشف عن حاله – طبيعي ، منكر الصانع) .

في حائر سبيع

وصلت جموع المكرمي إلى « حائر سبيع » ، بين الخرج والرياض ، في شهر ربيع الثاني من عام ١١٧٨ هـ . فسار عبد العزيز لقتالهم بجيش كبير ، وكان رجال هذا الجيش ، فيما يقول ابن غنام ، معجبين بأنفسهم إعجاباً لا حدّ له ، وكانوا خلال مسيرهم يظهرون ضروباً من الخيلاء والتيه لا توصف ، ويظنون أن عدوهم سيفرّ أمامهم ، بمجرد دنوهم منه ... فعاقبهم الله سبحانه على ذلك ، وامتحن بهذه الواقعة أهل الإسلام ، ليميز الخبيث من الطيب ...

دارت بين جنود المكرمي وبين جنود عبد العزيز معركة غير طويلة ، في أرض الحائر ، ولكنها كانت معركة رهيبة جداً ، انهزم فيها جيش عبد العزيز هزيمة منكرة ، فقتل من رجاله نحو خمسمائة ووقع منهم في الأسر أكثر من مائتين ، ورجع عبد العزيز بمن نجا معه إلى الدرعية ...

رواية اللمع

يقدر صاحب « اللمع » عدد مقاتلة المكرمي بألف ومائتين ، وعدد جنود عبد العزيز بأربعة آلاف ، ويزعم ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب حذر عبد العزيز منهم ، لما جاء ليخبره أنه عزم على استئصال العجمان ، لأنهم قوم فساد وشقاق ، فبيّن له الشيخ أن وراءهم قوم « يام » ، وقال له :

« هؤلاء طائفة كبيرة تسكن نجران ، وهم بداة وحضر ، ونحن لا نحب حربهم

اليوم » !

ولما وقعت الواقعة ، ووصل صاحب نجران إلى العارض ، قال الشيخ لعبد العزيز :

« سر له بخلق عديد ، ونازله ، ولا تحاربه ، حتى يقع بيننا صلح ، فإني لا أرى خيراً في القتال مع هؤلاء القوم ، ما تقول في أناس مسكنهم اليمن ، ويدخلون قلب نجد في هذا العدد القليل ، مع أنهم عرفوا شوكتنا فلم يبالوا بها ، فإياك والحرب معهم ، وإنما أمرتك بالخروج اليه .. أتعرف الغاية ؟

قال : لا !

قال : حتى لا تختلف جماعاتنا علينا ، فيقال : ضعف أمر هذا الدين وهابوا الحرب مع رجل يامي ! » .

ويصف صاحب اللمع المعركة ، فيقول إن المكرمي لما رأى ان مقاتلته لجنود عبد العزيز بالرصاص غير مفيدة له ، أمر جماعته بأن يهجموا عليهم بالسيوف ، وقال لهم : هؤلاء القوم نعاج .. وبقاؤنا معهم بلا تقدم ، لا ربح فيه ، كروا عليهم الساعة بالسيف !

فكروا على الجنود ، فذبحوا منهم أكثر من أربعمائة واستأسر لهم أكثر من ستمائة ، وهرب الباقون لا يلوون على شيء ، حتى بلغوا الدرعية .

الصلح مع صاحب نجران

يقول ابن غنام ، إن عبد العزيز ، لما وصل الدرعية ، دخل مجلس الشيخ ، في حالة انكسار ويأس ، فبادره بقول الله تعالى ، في كتابه الكريم :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

ماذا كان بعد ذلك ؟

يقول ابن غنام : إن المكرمي ارتحل من الحائر ، ونزل بالقرب من قصر

« الغذوانة » ... وإن دهام بن دواس وغيره من رجـال نجد المعادين للدرعية أرسلوا إليه الهدايا وكاتبوه وحرضوه على غزو الدرعية ووعدوه بالمؤازرة بالرجـال والأموال ، وكتب إليه صاحب الأحساء يخبره بقدومه عليه ... ولكن صاحب نجران آثر العودة إلى بلاده ، لأن الله تعالى قذف في قلبه الرعب ، فكتب إلى الدرعية يطلب منها إطلاق الأسرى من العجمان ، فلما أطلقتهم أخذهم وعـاد إلى اليمن !

إن رواية ابن غنام ، لا تبدو لنا معقولة !

وقد أخذها عنه ابن بشر ، ولكنه أضاف اليها كلمة غامضة ، ستفسرهـا لنا رواية اللمع وغيره ، وهي قوله :

« ان الشيخ ومحمد بن سعود أرسلا إلى فيصل بن سهيل ، شيخ الظفـير ، وأرسلاه إلى صاحب نجران : فاسترضوه ، وأطلقوا له الأسرى الذين عندهم من العجمان ، وأطلق هو أسرى المسلمين ، ورجع إلى وطنه » .

ان كلمة « استرضوه » ... لم ترد في ابن غنـام ... وهي كل مـا ذكره ابن بشر !

والحقيقة هي ان صلحـاً عقد بين الفريقين ، دفعت فيه إلى المكرمي أموال طائلة ، وأرسلت اليه هدايا جليلة ، وأخذت منه المواثيق .

ويقول صاحب « اللمع » إنهم أهدوا إلى المكرمي مائة وعشرين فرساً ، وإنه قال وهو يستلمها : الآن طابت نفسي !

ويقول المؤرخ الفرنسي ميشو : « أخفق عبد العزيز في قتـاله مع اليمانية ، وأصبح أمام خطر جديد ، هو هجوم صاحب الأحساء ... ولكن الشيخ محمد شجعه وقواه ودفع لغزاة اليمن أموالاً كثيرة أرضتهم ، فرجعوا إلى بلادهم .

وقد وقعت هذه المعركة ، قبيل موت الأمير محمد بن سعود ، فأحزنته كثيراً، لأنها كادت تقضي على كل ما بناه هو والشيخ خلال وقت طويل » .

ومن أطرف ما قرأناه — وإن كان شيئاً لا يصدق — ما رواه الرحـالة المعروف ، كارستين نيبهر — الذي زار اليامـة ، في حياة الشيخ محمد بن عبد

الوهاب في كتابه « وصف جزيرة العرب » ، قال :

« لاحظت أن المكرمي ، شيخ نجران ، جاء هو أيضاً بمذهب جديد . وأكد لي أحد رجال الأحساء ، الذين رافقوني في رحلتي إلى العجم : أن المكرمي ومحمد ابن عبد الوهاب يعتنقان نفس الأفكار الدينية ، وهذا ليس مستغرباً .ويبدو ، على كل حال ، أنهما صديقان .. »

ويردف نيبهر :« إن المكرمي اشتهر بالشجاعة ، في جزيرة العرب ، ولكنني استغرب كيف يجرؤ على اختراق بلاد نجد ، الآهلة بالسكان ، بجيش ضعيف ... »

ثم يذكر نيبهر ، أنه لما وصل إلى البصرة ، أفهموه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عدو للمكرمي ، وأن جيش المكرمي هزم جيش العارض ، وأن شيوخ الدرعية دفعوا له مبلغاً كبيراً من المال ، ووعدوه بأن يرسلوا اليه شيئاً كل سنة ، وربما عقد محمد بن عبد الوهاب معاهدة معه !

وسنرى صاحب نجران مرة أخرى ، في العارض ، عام ١١٨٩ ، في ولاية عبد العزيز ... ولكنه ، سيخذل هو ومن تبعه من رجال نجد، خذلاناً عظيماً في المعارك التي يخوضها في الحائر وضرمى ويرجع إلى بلاده مقهوراً مدحوراً .

ويزعم ابن غنام إن قبائل العجمان كانوا يحملون صاحب نجران ، وقد أرهقته الأسقام ، على سرير ، للاستنصار به ، وإن الناس فتنوا بما يبدي لهم (من حساب الرمل والتخمين والأحداس)! وإنه مات « في أثناء انصرافه » قبل وصول بلده »!

وهذا القول الأخير غير صحيح !

مع أمير الأحساء

كان لأمير الأحساء سليمان بن محمد ، نفوذ كبير في بلدان نجـــد ، وقد رأينا عثمان بن معمر ، أمير العيينـة ، يخضع لأمره ويخرج الشيخ محمد من بلده ، فلما استولى الموحدون على العيينـة وضموهـــا إلى دولتهم ، أغضب ذلك أمير الأحساء الجديد (عرعر بن دجين) ،لأنه فقد بلدة عظيمة في نجد كانت موالية لآبائه وأجداده، فصمم على محاربة الشيخ وأهل الدعوة .

وفي عام (١١٧٢) سار عرعر (ويسميـــه ابن بشر : عريعر) ، بأهـــل الأحساء وعشائر بني خالد ، إلى نجد ، واستنفر أهل الوشم وسدير ومنيخ والخرج والرياض ، فاجتمع اليه عدد كبير من المقاتـلة ، ثم انفصل عنه مقاتلة سدير والوشم والمحمل وذهبوا إلى (حريملا) وقاتلوها ثلاثة أيام ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليها فطلبوا النجدة من عريعر ، فأمدهم بجماعـة من بني خـــالد وعنزة ، ولكن حريملا قاومتهم واضطرتهم إلى الانسحاب ، فولوا منهزمين ، وتبعهم أهل حريملا ، فلما وصلوا إلى مقربة من معسكر عرعر ، خرجت عليهم جموع أمـــير الأحساء واضطرتهم إلى التراجع والهرب واستولت على ما كان معهم من الأمتعة والزاد .

ثم سار أمير الأحساء بجنده إلى (الجبيـلة) ، وكان عبد العزيز قد أمدها بعدد كبير من المقاتلة ، فقاومت الغزاة مقاومة عظيمة ، ثم جاء مدد من المسلمين جديد من خلف المهاجمين الغزاة ، فأوقع الفوضى في صفوفهم وكتب عليهم الهزيمـــة ، وخلفوا في ساحة المعركة ستين قتيلاً ، وكانت خسارة الموحدين عشرة رجال فقط.

أما الدرعية ، فكان أهلها يخشون وصول عرعر اليها ، فاستعدوا لمقاومته وقتاله استعداداً عظيماً ، وبنوا في بلدتهم « سورين منضودين بالبروج » ليمنعوا الأعداء من الصعود إلى الجدران ، ولكن المعركة انتهت في الجبيلة ، وكفاهم الله القتال في قاب البلد !

ويزعم مؤلف « اللمع » إن خسائر عرعر في الجبيلة بلغت ستمائة مقاتل ، لأن هذه البلدة كان لها سور محكم منيع ، وكان فيها خمسمائة مقاتل أشداء رتبهم فيها عبد العزيز ، فقاوموا الغزاة مقاومة شديدة وأنزلوا بهم تلك الخسائر الفادحة ، « ولما سمع عبد العزيز برجوع عرعر ، سار بنفسه إلى أهل الجبيلة ، وأنعم عليهم بالعطايا والتحف ، وقال لهم : الآن تبيّن عندي أنكم الصادقون بالقول . لكن المنة لله ، لا تحسبوا لأنفسكم منة في ذلك فإنه من ضعف الدين .

قالوا : نعم ، أيها الأمير ، بعنا أنفسنا لله » .

معاهدة مع عرعر

ويقول مؤلف « اللمع » إن الشيخ محمد وعبد العزيز ، بالرغم من هزيمة عرعر ورجوعه إلى بلده ، أرسلا إليه الهدايا واسترضياه وطلبا منه المصالحة ، وبقي الصلح بينهما نحو سبع سنوات .

ولا يشير مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر إلى هذه المعاهدة المزعومة ، بل يذكران لنا غزوة قام بها عبد العزيز في عام ١١٧٦ على قرية في الأحساء تدعى « المطيرفي » [١] فقتل من أهلها سبعين رجلاً واستولى على كثير من السلاح والأموال، كما أغار على بلدة « المبرز » وقتل رجالاً منها ، ثم عاد إلى نجد .

معركة عام ١١٧٨

كان عرعر مصمماً على الثأر لنفسه من رجال الدرعية ،فلما بلغه مسير صاحب نجران

---

١ – رسمها ابن بشر هكذا : « المطريفي » .. وهو خطأ مطبعي

القوي العنيد إليها ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ، فجمع جموعه وخرج من بلاده ، ومما شجعه وقوّى عزمه مكاتبات وصلته من ابن دواس يعده فيها بالانضمام إليه هو وأهل بلدته الرياض ، وأهل منفوحة ، وغيرهما من بلدان نجد .

ولما بلغ عرعر الدهناء ، قيل له إن جيش صاحب نجران رجع إلى بلاده ، فلم يثن ذلك عزمه ، ومضى في طريقه الى الدرعية ، وانضم اليه ابن دواس ومن معه من المقاتلة الذين لم يدخلوا في الدعوة أو الذين ارتدوا عنها ، وكانوا كثيرين .. فالتمس أرضاً قرب الدرعية تصلح لنزول هذا الجيش الكبير ، وما يحمل من مدافع وعتاد ومؤن ، فأشاروا عليه بأرض قرب القصير فنزلها ، ثم هجم على « القصير » و « سمحان » و « الزلازل » وهي كلها قرى مسورة ، وسلط عليها مدافعه .. ولكن مدافعه لم تعمل عملاً مذكوراً في أسوارها .. بل إن بعض رجال عبد العزيز استطاعوا الوصول الى جنود « المدفعية » فهربوا منهم وتركوا مدافعهم .. وكان لعبد العزيز (عيون) ينقلون اليه أخبار اجتماعات العدو وتدابيره وتحركاته فأفاد من ذلك كثيراً،وانكشفت المعركة عن هزيمة عرعر ومن تبعه من أهل نجد .

ويقال إن قتلى عرعر كانوا أربعين رجلاً، وقتلى الموحدين نحو اثني عشر رجلاً.

رواية « اللمع »

ويقول صاحب « اللمع » ان عرعر « حين سمع بحرب النجراني ، قال : هذه فرصة فيجب أن أغتنمها، فركب بعسكره وبلغ حوالي الدرعية واتفق ذلك اليوم أنه اليوم الذي وقع فيه الصلح مع النجراني وكان عسكر النجراني على فرسخين من الدرعية فنزل عرعر قريباً منه بنصف فرسخ، فأرسل عرعر الى النجراني: « إننا نحمد الله على هذا الاتفاق الذى حصل بيننا وبينكم على حرب هذا المبتدع، ونحن ان شاء الله سنقوم بمواجهتك وتتمم الامر بينا وبينك على كيفية حربه ولا نطيل الأمر ». فكتب الحسن بن هبة الله الى عرعر يقول له : « لو كان هذا الاتفاق قبل أن يجري

الصلح بيننا وبينه لانتظم الامر على وفق خاطرك ، لكن الآن حصـــل مرادنا من الانتقام ، وقـد طلب منا العفو ، ونحن أهـل له عند القدرة ، وأعطيناه فلا يمكننا ابدال القول ، أما أنت فعر بحربك معه ونحن لا نتعرض بشيء . »

فلما وصل كتاب النجراني الى عرعر وعرف مضمونه ، اغتم لانه كان يحسب انه معه ولان النجراني وان كان عسكره قليلاً قدر ألف ومائتي رجـل لكنه كثير الحماية والقوة والشجاعة . وقبيلة (يام) معروفة ، قيل من عاداتهم في الحرب انهم اذا حملوا لا ينكصون ولو قتلوا عند آخرهم،ومن عاداتهم في الحرب ولو قتل كبيرهم فلا يختلون، ويقيمون أدنى شخص مقامه، ثم ان عرعر كتب كتاباً آخر الى النجراني يرغبه في الموافقة على حرب محمد بن سعود وذكر له أيضاً أنك إن وافقتني على قلعه من هذه الارض لك كل عام مائة ألف ذهب تصلك الى نجران ، فرد جوابـــه النجراني قائلاً لا يكون ذلك، كيف والشيمة هي حسن الوفـــاء بالقول، نعم ان انت ادركت منه مرادك الآن فبها،واذا أحدث علينا شيئاً ، فأنا بمجرد سماعه آتيه لا يردني شيء عنه ، اما قتله أو الموت .

ولما آيس عرعر من اتفاق النجراني معه حاصر الدرعية شهراً ولم يدرك شيئاً مما أراد فرجع الى الأحساء ...

وفـــاة

محمد بن سعود

في آخر ربيع الأول من عام ١١٧٩ هـ . – ١٧٦٥ م . توفي محمد بن سعود ، ويلقبه ابن غنام بالأمير ، ويعطيه ابن بشر لقب الإمام ، وأكبر الظن أنه لم يحمل في حياته هذا اللقب ، وإنما هو لقب أطلق عليه بعد وفـــاته ، وإن تكن كلمة « الإمامة » هي التعبير الشرعي الصحيح لرئاسة المسلمين ، الدينية والزمنية .

أولاده

خلف محمد بن سعود ولدين ذكرين ، همـــا : عبد العزيز وعبد الله وقد تولى عبد العزيز الإمامة (أو الأمارة) بعده .

وأما عبدالله، فلم يتول الإمارة، ولكن ابنه (تركي) أعاد الدولة بعد انهيارها ، وملك وتولى الملك أبناؤه من بعده ، وما يزال فيهم .

وكان لمحمد بن سعود ولدان آخران ، وهما : فيصل وسعود ، وقد استشهدا في حياته .

ويزعم فيلبي إنه كان لمحمد بن سعود ولد خـــامس ، يدعى (علي) ، وقد ورّطه في هذا الخطأ كلام ابن غنام المسجع ... ولو رجع إلى ابن بشر لأدرك أن (عليـــا) هذا ابن الأمير محمد ، الذي قتل عـام ١١٨٦ هـ . هو ابن محمد ، أمير ضرمى ...

هل زاحمه أخوه ؟

ويزعم فؤاد حمزة وغيره إن الإمامة لم تتم لمحمد بن سعود إلا بعد وفاة أخيه ثنيان عام ١١٦٠ هـ . ، وهذا القول غير صحيح ، ويزيد في بطلانه أن ثنيان ، كما يذكر ذلك ابن بشر ، توفي عام ١١٨٦ هـ .

توسع الدولة في زمانه

يمكننا القول إن محمد بن سعود قد شهد قبل موته نشوء أول دولة إسلامية عربية مستقلة ، في الدرعية .

وكانت هذه الدولة في ازدياد ، وكان خصومها في تناقص وتراجع ...

وفي عهده ، وتحت زعامته وزعامة محمد بن عبد الوهاب ، تمّ توحيد أكثر بلاد العارض ، وشقت دولة الدعوة طريقها إلى الوشم ، حيث انضمت اليها الشقراء ثم الفرعة وبقيت ثرمداء ممتنعة ولكن الغزوات أضعفتها وامتدت الدولة إلى سدير ، والمحمل ، وشعيب ، وترنّحت (الرياض) تحت ضربات الموحدين ، وطلبت السلم ومشت تحت راية ابن سعود في بعض غزواته – وإن عادت إلى التمرد بعد وفاته .

وهكذا ترك محمد بن سعود لأولاده إرثاً تجاوز كثيراً إرث آبائه ، ترك لهم دولة ترفرف راياتها على أكثر من بلد من بلدان نجد ، وينتشر دعاتها وأنصارها في مختلف المدن والقرى والبوادي النجدية .

وكان يهيمن على الناس هذا الشعور الذي يمهد الطريق للفتح : شعور النصر للدولة الجديدة والرعب لخصومها ...